مختصر

محاضرات التفسير العلمي

كانت البشرية قبل بعثة النبي ρ ونزول القرآن في ضلال مبين، وقد انحدرت إلى أدنى دركات الانحطاط في شتى مجالات الحياة، بل انطمست معالم الدين الحق، فانطفأت أنوار النبوات، وانحسر المعروف وساد المنكر وظهر الفساد في البر والبحر، فكان نزول القرآن على النبي ρ أعظم منة ونعمة امتن الله بها.

ولذلك قال الله Y: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران:164] أي منغمسين في الضلال، وقال تعالى أيضًا في الحديث القدسي: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ Y: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**».

لقد كانت الغاية من نزول القرآن هو أن يكون كتاب هداية ومنهج حياة، ومنقذًا من الضلالة، ولذلك قال Y: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[النحل:64]. فصيغة القصر بقصد الإحاطة بالأهم من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها، أي وما أنزلنا هذا القرآن إلا لمقاصد عظيمة هي تبيين الحق للناس فيما اختلفوا فيه من التوحيد والقدر وأحكام الأفعال وأحوال المعاد، فالقرآن لا يترك للباطل مسلكًا إلى النفوس، وهو مفصح عن الهدى إفصاحًا لا يترك للحيرة مجالًا. ثم أتم الله النعمة بأن حفظه من التبديل والتحريف والتغيير والزيادة والنقصان، ولذلك قال:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر:9].

وهذا الحفظ المذكور في الآية له وجوه عديدة، شاملة لحفظ اللفظ ولحفظ المعنى في جميع الأحوال، ومن أدلة حفظه أيضًا قوله: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت:42].

يقول قتادة والسدي: الباطل هو الشيطان، لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه، ومعنى قوله: عزيز، أي منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء، ولهذا أكد هذا المعنى بقوله Y: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} [فصلت:42]، فلا يقربه شيطان، سواء من شياطين الإنس أو الجن، لا بسرقة وبإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة، ولا بنقصان، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظ في ألفاظه ومعانيه.

ومن الأدلة الدالة على حفظه قوله Y: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } [القيامة:17-19]، ثم أيها الأحباب: إن من تمام النعمة التي أنعم الله بها على العباد إضافة إلى حفظ القرآن لهم أن يسره للذكر، قال Y: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [القمر:17].

أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراد والانتفاع به، فهو كلام رب العالمين؛ لكن الله يسره لفظًا ومعنى، فهو أحسن الكلام لفظًا وأصدقه معنى وأبينه تفسيرا.

وهذا القرآن هو مصدر الدين الأعلى، وهو مستند الإسلام في عقائده وعباداته وأحكامه وآدابه وأخلاقه، وقصصه ومواعظه وعلومه ومعارفه، بل هو سبب بقاء اللغة وسلامتها وتفوقها على سائر اللغات.

ومنه تستمد علومها على تنوعها وكثرتها، فهو أولًا وآخرا إذا أخذت به الأمة واعتنقته وعظمته وحملته حق الحمل هو القوة التي غيرت صورة العا لم، وحولت مجرى التاريخ وأيقظت البشرية من سباتها.

ومن أعظم الصور التي نستطيع أن نقول هي من صور عناية الأمة بهذا القرآن هو النظر في تفسيره، التصدي لذلك والعناية العظيمة به، فبالتفسير نستطيع أن ننتفع بهذا القرآن، ونحقق الغاية التي نزل من أجلها، ولذلك كانت جهود الأمة عظيمة في تفسير كلام الله Y والعناية به.

التفسير لغة أصله مادة فسر، ومدارها على الكشف والبيان والوضوح. ويستعمل في المحسوسات والمعقولات، فالمراد بالتفسير هو كشف المراد من اللفظ، خاصة إذا كان لفظا غريبا أو مشكلا.

وفي **الاصطلاح**: هو بيان معاني آيات القرآن الكريم. وحتى يتضح المعنى نقول: كل معلومة نحتاج إلى وضوح معنى الآية فهو من التفسير سواء كانت جملة أو آية أو كلمة.

وهذا البيان ربما تكون بسياق الآيات أو يكون بسبب النزول، وقد يكون بحديث أو بسنة عامة، وقد يكون أيضًا من خلال اللغة، وقد يكون بغيرها.

كيف نشأ علم التفسير

بدأ الكلام في التفسير في عصر النبوة مع نزول الوحي.

قال ابن عاشور: اتفق المفسرون على أن المراد بقوله: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} هو جبريل، وهذا التعليم مجمل، يشمل اللفظ والمعنى، بدلالة قوله Y: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ [في صدرك] وَقُرْآنَه [تقرأه] * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ [أي إذا تلاه عليك الملك] فَاتَّبِعْ قُرْآنَه [فاستمع له حتى تتلقى لفظه] * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه[أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا]} [القيامة:17-19].

وقد أمر الله نبيه ρ أن يبين للناس هذا القرآن، يبينه ويعلمهم إياه، قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ [يعني يعلمهم ألفاظه وكيف يقرؤونه] وَيُزَكِّيهِمْ [أي يربيهم بهذا القرآن بإصلاح القلب والجوارح وتطهيرها حتى تخضع لله Y] وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ [حتى يكونوا علماء بالكتاب لفظه ومعناه وحكمه وأحكامه، وهذه الدرجة فرض كفاية] وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِين} [آل عمران:164]. في أربع آيات (سورة البقرة وآل عمران والجمعة)

ولذلك أن الرسول ρ علم الصحابة اللفظ والمعنى يقول شيخ الإسلام أيضًا في مقدمة أصول التفسير: يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: 44] يتناول هذا وهذا، يعني يتناول اللفظ والمعنى.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي، وهو من خيار التابعين: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا.

والمراد تعليمهم ما يحتاجون إليه من تفسير كلام الله تعالى، سواء كان هذا التعليم سواء ابتداء من النبي ρ يبتدئهم بذلك أو يكون إجابة على إشكال أو استفهام منهم ψ.

يقول ابن عبيدة: إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فلم يحتاج السلف ولا الذين تركوا وحيه إلى النبي ρ أن يسألوا عن معانيه؛ لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، هذا في الجملة.

ولا شك أنهم تعلموا أحوال العبادات والمعاملات والمغازي من النبي ρ عمليا، وكانوا يشاهدون أفعال النبي ρ عمليا، فكان يفسر لهم القرآن تفسيرا عمليا حيا يغنيهم عن السؤال عن كثير من آيات القرآن.

ثم أيضًا أن الرسول ρ على أن يكون الإيمان هو الباعث على العلم بالقرآن، وأن تكون غايتهم من العلم هو العمل، قال الله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} [المائدة:101].

وقال الرسول ρ: «**ذروني ما تركتم**» إلى أن قال: «**ما أمرتكم به فاتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه أو فدعوه**».

وقال النبي ρ «**لا تكتبوا شيئًا سوى القرآن ومن كتب غير القرآن فليمحه**»، فكان علماء الصحابة ينقلون إلى التابعين ما سمعوه من التفسير النبوي للقرآن مشافهة.

ومثاله ما رواه الترمذي وحسنه عن عدي بن حاتم قال: قال النبي ρ: «**إن المغضوب عليهم هم اليهود وإن الضالين النصارى**» فهذا تفسير ابتداء، ومنها تفسير إجابة، قيل ما السبيل قال الزاد والراحلة.

المرحلة الثانية تفسير عصر الصحابة بعد موت النبي ρ الصحابة أيضًا كان لهم حال مع تفسير القرآن، وكان هناك تطور، لكن الصحابة قد تلقوا من النبي ρ وتعلموا منه تعليم القرآن، ولذلك كان الرجل إذا دخل في الإسلام دفعه إلى الصحابة ليعلموه دينه ويتفقه في دينه، ويقرؤوه ويعلموه القرآن.

وكان الخلفاء الراشدون يحرصون على تعليم المسلمين القرآن والسنة، ولذلك روى الطبري أن عمر بن الخطاب τ كان يقول: اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم.

ومن أشهر المفسرين من الصحابة: الخلفاء الراشدون وأكثرهم علي بن أبي طالب، وابن مسعود وابن عباس وأُبي بن كعب. يليهم زيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير.

مظان تفسير الصحابة هي تفسير الطبري وتفسير ابن أبي حاتم وتفسير عبد الرزاق.

ثم بعد ذلك عهد التابعين، فكان التابعون قد تلقوا التفسير من الصحابة، تربوا على أيدهم يتلقوا عنهم السنة، في عهد التابعين اتسعت حركة التفسير وازدادت حاجة الناس إلى هذا التفسير وإلى فهم الآيات.

لأنه ابتعدوا قليلا عن مصدر النبوة، ولما اتسعت الفتوحات وانتشر دين الإسلام في أصقاع الأرض ضعفت ملكة اللغة وظهرت العجمة، ، اشتغلوا بتفسير القرآن لكي يعلموا الناس هذا القرآن لحاجة الناس.

اشتهر من علماء التابعين في كل مصر من أمصار المسلمين جماعة من المفسرين وبخاصة في أهم الحواضر: مكة والمدينة والكوفة والبصرة، أما أهل الشام فكانوا أقل لأنهم كانوا أهل غزو وجهاد، فكان من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم.

فأعلم الناس بالتفسير أهل مكة من أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء وعكرمة،

وأهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود كمسروق،

وأهل المدينة في التفسير كزيد بن أسلم أخذ عن أبي بن كعب.

وأهل البصرة كأبي الشعثاء وقتادة والحسن البصري والربيع وغيرهم.

وانتشر أثر المفسرين في هذه المراكز إلى الأمصار الأخرى، ولم يتقصر على تلك البلدان.

وتطور التفسير وأصبح مدارس تلقى فيها التابعون التفسير عن الصحابة. ونشأ التدوين في هذه الفترة.

وتفسير السلف (والذي يشمل تفسير الصحابة، تفسير التابعين، وتفسير أتباع التابعين، وهي فترة تمتد إلى قريبًا من سنة مائتين) حجة ولا يجوز أن نخرج عن هذا التفسير، ولا يلزم أن قاله الصحابة هو مما تلقوه من النبي ρ، لأنهم ساروا على قواعد وضوابط سليمة ضبطت تفسيرهم حتى صار حجةً في جملته.

ولذلك لما ننظر إلى الصحابة، يقول ابن مسعود عنهم: (كانوا أبر هذه الأُمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا وأقومها هديًا وأحسنها حالًا، اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).

وضابط هذه الفترة ما دل عليها حديث النبي ρ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهمن**»، فقال الشراح: إن المراد به جيل الصحابة وجيل التابعين وجيل أتباع التابعين.

وتفسير السلف صار معيارًا في قبول أو رد أي تفسير يأتي بعدهم.

ثم ظهر طور جديد، وهي ظهور التفسير في مرحلة المصنفات الجامعة.

هذه المرحلة صار فيها جمع لكل ما قيل في التفسير خاصة مما قاله الصحابة أو التابعون أو أتباع التابعين ومن بعدهم.

إذا نظرنا إلى أقدم تفسير – ولكنه ليس أجمع تفسير –، هو تفسير مقاتل وتوفي سنة 150 هجرية.

وذكر الداوودي في ترجمة الإمام مالك وتوفي عام 179 هجرية، أنه هو أول من صنف تفسير القُرآن على طريقة مطى، هذا طبعًا غير موجود بس هو يذكر ذلك، ونسب السيوطي تفاسير إلى عدد من السلف كلهم كانوا في القرن الثاني أو في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث. منها تفسير عبد الرزاق وهو مطبوع.

أما أجمع التفاسير – بل هو موسوعة في التفسير لأنه عُني كثيرًا بتفسير السلف – هو تفسير: ابن جرير الطبري. فهذا أجل التفاسير وأعظمها، وقد حشد فيه كل ما قيل في تفسير القُرآن عن السلف من الصحابة

والتابعين وأتباعهم، وكان يحرر مسائل ويرجح ويختار ويضعف، فكان إمامًا حقًّا في هذا التفسير وكان كتابه يعتبر فتح في هذا المجال فكان هو نقلة في التفسير.

أيضًا تلاه تفسير أبي حاتم وكان دونه لا من حيث أقوال المفسرين أو أقوال السلف أو حتى من حيث المنهج الذي سلكه في التعامل مع أبطال المفسرين.

فلما فسد اللسان وكثرت العجمة أو العجم ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفة والألسنة، احتاج المتأخرون إظهار ما أنطوى عليه كتاب الله تعالى من غرائب التراكيب وانتزاع المعاني وإبراز النكت البيانية حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها، إلى آخره.

فبدايةً ظهرت مرحلة التفاسير المستقلة، يعني حتى نتتبع هذه الاتجاهات، نقول بدأت مرحلة تفاسير مستقلة وكانت بالأثر وبالسند كتفسير عبد الرزاق كما قلنا، كما تقدم قبل قليل، فهذه مرحلة لكنها يعني تعتبر هي استمرار لمرحلة التفسير أو اتجاه السلف في التفسير.

ثم ظهر بعد ذلك التفسير اللغوي، وهم أصحاب كتب المعاني وإن كانت في وقت مبكر إلى حدٍ ما لكنهم أيضًا أظهروا نوع من التفسير يعتمد أكثر ما يكون على اللغة، ويعتبرون أنهم هم أهل المعاني فيبينون تفسير القُرآن من خلال اللغة، كمجاز القُرآن لأبي عبيدة، ومعاني القُرآن للفراء وللأخفش والزجاج وغيرها.

بعد ذلك تلاها تفاسير بدون إسناد، كتفسير البغوي وابن الجوزي وغيرها، هذه عبارة عن كتب تجمع ما سبق فيكون فيها تفسير السلف وتفسير غيرهم.

في هذه الأثناء أيضًا ظهرت التفاسير على المذهب، التفسير وفق المذهب العقدي؛ الاعتزالي والأشعري، فشكل هذا اتجاهات في التفسير، وظهر اتجاه تفسير فقهي مثل أحكام القُرآن للجصاص ولابن العربي.

ظهر أيضًا الاتجاه العقلاني (الذي يغلب العقل على النقل في ترجيحاته) وهذا الاتجاه غذاه وقواه في العصر الحديث ضعف الأُمة الذي انتهى بسقوط الخلافة العثمانية وظهور الغرب بتقنياته وبحضارته البراقة، مع تسلط العالم الغربي على المسلمين واستعمارهم للعالم الإسلامي.

ومن رحم الاتجاه العقلاني ولد – متأثرًا به كثيرًا – الاتجاه العلمي، ولكن لا نحكم بهذه الظروف عليه.

فالمراد بالتفسير العلمي: هذا أول مصطلح ظهر في القرن الرابع عشر الهجري، مصطلح جديد وليس قديم، وهو يتعلق بتفسير القُرآن من خلال النظر إلى الحقائق العلمية أو الاكتشافات الحديثة.

فالمصطلح نفسه جديد، لكن أصله قديم ظهر في وقت الدولة العباسية، وكان عبارة عن محاولات يقصد منها التوفيق بين القُرآن وما جد من علوم في بدايته، ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة عند أبي حامد الغزالي، وكذا الفخر الرازي في تفسيره كان يحاول إبراز هذا النوع من التفسير.

وبعد ذلك وجدت كتب مستقلة في استخراج علوم القُرآن وتتبع الآيات الخاصة في مختلف العلوم، لكنها لم تكن مثل العصر الحديث كثرةً ولا مقاربة لها.

ما المرادُ بالتفسير العلمي؟

التفسير هو: الكشف والبيان، وهو: بيان معاني آيات القُرآن الكريم.

والعلم: إدراك الأشياء على حقائقها (على ما هي عليه). أو: صفةٌ ينكشفُ بها المطلوب انكشافًا تامًا.

والمقصود بالعلم في مصطلح التفسير العلمي هو العلم التجريبي وما يتعلق به من علوم الطبيعة الموجودة في الكون مثل الفيزياء والكيمياء وطبقات الأرض، علم الأحياء، علم البحار، علم الفك، وغيرها من العلوم.

والأصل أن مصطلح العلم عند الإطلاق بمعنى العلم الشرعي. لكنه عند الماديين يعرفون العلم بأنه فقط خاص باليقينيات التي تستند على الحس وحده. ولذا سنُسميه "**التفسير العلمي التجريبي للقرآن الكريم**".

التفسير العلمي: عرِّف بأنه هو الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في هذا القُرآن،

وقيل: هو التفسير الذي يحاول استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية من القُرآن أو من آيات القُرآن.

وقيل: هو التفسير الذي يربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية.

وقيل: هو العلم أو التفسير الذي يظهرُ إعجاز القُرآن ويبين صلاحيته لكل زمان ومكان.

والأقرب: هو كشف عن زيادة معنى في آية أو آيات في ضوء حقائق العلوم الكونية والتجريبية.

الآية لها تفسير معروف، لكنه يزيدُ فيها معنًا سائغًا كما سيأتي إن شاء الله في ضوابط هذا التفسير.

وهذا الكشف عن المعنى الزائد يتحقق من خلال تدقيق النظر في الآية القرآنية من خلال اللغة العربية، وبالنظر إلى الحقيقة العلمية التجريبية، ينظر إليهما معاً في آنٍ واحد ويجتهد ليخرج من هذا المزيج بذلك المعنى الزائد في الآية الذي كان خافيًا على المفسرين المتقدمين.

ست مسائل هامة:

- المسألة الأولى: ما وجه الصلة التفسير العلمي بالأنواع الأخرى من التفسير.
- والمسألة الثانية: مفهوم العلم في القُرآن، ثم مفهوم العلم في العصر الحديث.
- والمسألة الثالثة: نريد أن نعرف موقف العلماء من التفسير العلمي.
- والمسألة الرابعة: المؤلفات في التأصيل للتفسير العلمي.
- والمسألة الخامسة: مجالات التفسير العلمي.
- والمسألة السادسة: الصلة بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، وإعجاز القُرآن عمومًا.

نبدأ بالمسألة الأولى وهي: صلة هذا التفسير بأنواع التفسير الأخرى.

التفسير العلمي يقوم على أربعة أركان:

1▪ على الحقيقة العلمية. 2▪ وعلى الإشارة القرآنية. 3▪ وعلى اللغة التي نزل بها القُرآن.

4▪ وعلى العقل الذي يجتهد من خلاله المفسر لكي يربط بين الحقيقة والإشارة التي جاءت في القُرآن من خلال اللغة العربية.

فإذا كان التفسير ينقسم إلى قسمين: تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي. فإن التفسير العلمي يعد من التفسير بالرأي (وقد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا)، وعليه فصلة التفسير العلمي بأنواع التفسير الأخرى تعود في حقيقتها إلى مصادر التفسير، وذلك أن أهم نوعين من أنواع التفسير يتعلق بهم التفسير العلمي التجريبي هما:

- التفسيرُ السلفي، ومصدره الرئيس هو القُرآن والسُنة والأثر.
- والتفسير اللغوي، ومصدره الرئيس هو اللغة.

■ أما التفسير العلمي فمصدره الرئيس هو الحقيقة العلمية التي يعتقد المفسر أن القُرآن أشار إليها.

ومن وجه آخر يمكن أن يقال: أن التفسير العلمي له صلة بهذين النوعين من التفسير باعتبار أن الجانب اللغوي يعد ركنًا في التفسير العلمي كما تقدم. والتفسير الأثري هو الضابط للتفسير العلمي من الشطط والانحراف.

❍ مسألة سر التسمية بالتفسير العلمي؟

فنقف عند كلمة العلمي والعلم.

المراد بالعلم في القُرآن عند الإطلاق هو العلم الشرعي، العلم الشرعي هو المراد به عند الإطلاق في القُرآن. وقد يعبر عنه أحيانًا في القُرآن بالحكمة، وفيها معنىً زائد على العلم.

والآيات الدالة على أن المراد بالعلم هو العلم الشرعي في القُرآن آياتٌ كثيرة، ويلاحظ أنه في كثير من الأحيان أن يوصف أهل العلم بأنهم أولوا الألباب، أي أصحاب العقول النيرة النقية الصافية الرشيدة.

أما قوله Y: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} [غافر: 83]، أي بالعلم الذي يزعمون أنه حق ويعارضون به العلم الذي جاءت به الرسل. فلاشك أن هذا علمٌ ليس نافعًا بل هو ضار، ولذلك كان سبب هلاكهم. وهذه الآية ذكرت العلم لكن سياقها يدل أنه علمٌ غيرُ نافع.

- أما في العصر الحديث فله قصة، فعندما ظهرت الثورة الصناعية في الغرب بعد صراعٍ سابق بين أرباب العلم التجريبي ورجال الكنيسة انتهى بظهور أرباب العلم التجريبي وإبعاد الدين عن الحياة باعتباره معارضًا للنهضة والتطور، وقد قصد المستعمر أن يفرض نظامًا تعليميا تعظم فيه العلوم التجريبية وتزدرى فيه علوم الشريعة؛ وهذا مقصود لديه لأن الشريعة هي سبب نهضة المسلمين ومقاومتهم المستعمر.

ولما كان العلم التجريبي يمر بمراحل (منها: الملاحظة والمشاهدة ثم الفرض ثم التجريب، ثم القانون العلمي الذي ينبني على ذلك) بنو على ذلك أنه علمٌ متيقن لأنه نتج من تجربة ومشاهدة، وأما ما عداه من علوم فإنها لا تعدُ مستيقنة بل مشكوكٌ فيها لأنها لا تقومُ على المشاهدة والتجربة فبالتالي أخضعوا العلوم الأخرى أيضًا لذلك، فما دامت لا تخضع للتجربة فإنها لا تُعدُ علومًا مستيقنة.

ويلاحظ أن المنهج التجريبي الغربي يقوم على ثلاث قواعد مهمة: ينكرون كل الغيبيات لأنها لا تخضع للملاحظة والتجربة، ويزعمون بحتمية القوانين الطبيعية التي قامت من خلال التجربة والتطور العلمي، ويدعون كفاية المنهج العلمي التجريبي في المعرفة من ناحية والقيام من ناحية أُخرى.

المسألة الثالثة: موقف العلماء من التفسير العلمي.

بدأ الحديث عن التفسير العلمي في وقت مبكر في زمن الدولة العباسية فمنهم المؤيد ومنهم الرافض. **فكان أول من اشتهر بالكلام عنه ونصرته** هو أبو حامد الغزالي في الإحياء، وفي كتابه جواهر القُرآن، إلا أنه طرح هذا الأمر طرحًا نظريًا، ثم طبقه الفخر الرازي في تفسيره فكان في آياتٍ متعددة يتناول الحديث عن التفسير العلمي أو الحقائق علمية معينة لتوضيح الآية. كما تحدث مثلًا عن آية: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} [النحل: 68]. وكذلك من المناصرين لهذا التفسير الزركشي في البرهان، والسيوطي في الإتقان وانتصر له.

وفي العصر الحديث انتصر له رموز المدرسة العقلية مثل رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني وعبد الرزاق نوفل، وجوهري طنطاوي، وله تفسير في ذلك اسمه "الجواهر في تفسير القُرآن الكريم".

ومعلوم أن التفسير العلمي يقوم على العقل وإعمال العقل سواءٌ في الحقيقة الكونية أو في الربط بينها وبين الآية القُرآنية التي قد تشير إلى تلك الحقيقة، فهذا إعمال العقل. لكنهم لما كانوا يبالغون في الأمور العقلانية ورد كل ما هو محسوسٌ لا يقبله العقل مثل: تفسيرهم للطير الأبابيل بأنها جراثيم وغيرها، كل ذلك من باب رد ما هو خارج التجربة وخارج العقل بأمورٍ محسوسة، كل هذا منهج عقلاني.

ولاشك في التفسير العلمي هو باب لهذا الأمر يلجونه لأجل التقريب بين الحضارة الغربية وبين الإسلام وأن القُرآن جاء بأمور يعني توافق هذه الحضارة ومؤيدة لها، ولأنه في حالة الهزيمة يبحث المهزوم عن أي شيء ولو بتعسف لإثبات أن هذا الذي يملكه يُشيرُ إلى ما عند العدو من تقدم ورقي وتقنيات ونحو ذلك.

ومن أهم أدلة المناصرين:

- عمومات القُرآن مثل قوله Y:{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: 89]، وقوله Y: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 38].
- ومن السُنة حديث: «**كتاب الله فيه نَبَأُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَنْ بَعْدَكُمْ**» والأصح أنه موقوف.
- وكذلك ما ينقل عن السلف أن القُرآن حمال ذو وجوه.

كل هذه أدلة وعمومات استدلوا بها على أن القُرآن يحتمل كل ما يزاد عليه من خلال التفسير العلمي والاكتشافات العلمية، ويقول أيضًا أن القُرآن له ظاهر وله باطن.

أما المعارضين من المتقدمين: أبو حيان وأبو إسحاق الشاطبي أكثر من عارضوه وانتصر لرده ورده بأدلة من خلال كتاب الموافقات التي تتكلم عن المقاصد، فقال أن من المقاصد: أن هذه الشريعة أُمية والرسول أُمي ولذلك جاء هذا القُرآن إلى أُمة أمية وبالتالي أن هذه القُرآن جاء بأساليب العرب وموافق لعلومهم ولا يخرج عنها، فمن أتى بعلوم أخرى خارج علوم العرب فإنه يكون قد خالف يعني معهود القُرآن.

ومن المعاصرين: محمد رشيد رضا، محمود شلتوت، وأمين الخولي. عارضوا هذا التفسير العلمي باعتبار ما رأوه من تكلف ومبالغة في هذا الأمر كما حصل من جوهري طنطاوي وغيره.

وكان الشاطبي أفضل من تكلم عنه وبين أهمية ضبط هذا التفسير ورده، ورد على أدلة هؤلاء الذين قالوا بالعمومات، فبين أن {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 38] المقصود به اللوح المحفوظ أو ما يتعلق بالعباد والشرائع التي شرعها الله Y. وكذلك قوله في سورة النحل: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ } [النحل: 89] المقصود بها ما شرعه الله للعباد.

أما بقية العمومات لا يلزم أن تكون دالة على هذا الأمر، بل لابد من دليلٍ خاص يثبت هذا الأمر.

والمنهج الوسط هو ما أثبت أن الحقيقة علمية وأشارت إليها الآية بضوابط معينة وشروط، فإنه يؤخذُ به، **فهو لا يُردُ مطلقًا ولا يقبلُ مطلقًا**، هذا هو المنهج في ذلك.

❍ المسألة الرابعة: المؤلفات في التأصيل للتفسير العلمي.

كتب الكثير في التفسير العلمي عمومًا، لكن الذين تكلموا عن تأصيل هذا العلم هم قلة.

❑ ومن أفضل من كتب فيه **د. هند شلبي** في كتاب "**التفسير العلمي للقُرآن بين النظرية والتطبيق**"

❑ ومن المراجع المهمة كتاب اسمه "**التفسير العلمي للقرآن في الميزان**" **لأحمد بن عمر أبو حجر**.

وأصلهما رسالة علمية.

❑ ومن الكتب التأصيلية "**خلاصة وحدة التفسير العلمي في القُرآن الكريم بين المجيزين والمانعين**" لمحمد الأمين ولد الشيخ.

❑ ومن الكتب المهمة كتاب اسمه "**الإعجاز العلمي إلى أين؟**" د. مساعد الطيار، وهو عبارة عن مقالات تقويمية للإعجاز العلمي. تكلم فيه الحقيقة عن تقويم المفاهيم في مصطلح الإعجاز العلمي خاصة مصطلح المعجزة، تكلم فيه كلام جيد. وله مقالة طويلة اسمها "**تصحيح طريقة معالجة تفسير السلف في بحوث الإعجاز العلمي**". وذكر: هل يصح نسبة الإعجاز إلى السُنة؟ هل السُنة فيها إعجاز؟ بمعنى يعني هل يصح أن نثبت الإعجاز أو هي آيات صدق.

❑ من الكتب "**التفسير العلمي بين القول والرد**" د. عبدالسلام اللوح، وهو بحث صغير.

❑ "**أبحاث المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي في القُرآن والسُنة**" التابع للهيئة العالمية، أو هيئة الإعجاز العلمي في القُرآن والسُنة التابع لرابطة العا لم الإسلامي.

❑ من الكتب المهمة "**اتجاهات التفسير في العصر الراهن**" للدكتور عبد المجيد المحتسب، تناول فيه الفصل الثالث فيه التفسير العلمي وذكر فيه كلامًا جيدًا وتكلم فيه كلام واسع لكنه تكلم عن المانعين والمؤيدين وفصل في ذلك وبين حجج كل فريق وبين موقفهم في آخر الكتاب.

❍ **المسألة الخامسة: مجالات التفسير العلمي.**

المراد بالمجالات هنا: هو نوع المخلوقات التي تناولتها آيات القُرآن وتضمنت إشارات ودلائل تبينت بصورة أكبر في هذا العصر.

القُرآن أوجز هذه المجالات في مجالين:

▪ قوله Y: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: 53]، قال عطاء وابن زيد: {فِي الْآفَاقِ} يعني أقطار السماء والأرض من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار. {وَفِي أَنْفُسِهِمْ} من لطيف الصنعة وبديع الحكمة.

وإن كانت في وجوه أخرى يعني لا تدلُ على هذا المعنى الذي ذكروه، لكن هذا الوجه في تفسير الأئمة يدل على أن الآية تحتمل هذا المعنى.

▪ وقال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ 20 وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ 21 وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ 22} [الذاريات: 20 - 22].

فقوله: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ} أي عبر للموقنين إذا ساروا فيها من الجبالِ والبحارِ والأشجار والثمار وأنواع النبات. وقوله {وَفِي أَنْفُسِكُمْ} يعني آيات إذ كانت نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظمًا إلى أن نفخ فيها الروح. وقال عطاء عن ابن عباس: يُريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع.

وقوله: {أَفَلَا تُبْصِرُونَ} قال مقاتل: أفلا تبصرون كيف خلقكم فلتعرفوا قدرته على البعث.

وقوله: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ} قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق.

وقوله: {وَمَا تُوعَدُونَ} قال عطاء: من الثواب والعقاب. وقال مجاهد: من الخير والشر. وقال الضحاك: وما توعدون من الجنةِ والنار.

➢ وقد جاء في القُرآن آيات كثيرة تتناول بعضًا من الآيات الكونية كالشمس والقمر والجبال والبحار، لكن بينت الآيات السابقة (آية الذاريات وآية فصلت) بإجمال مجالات حديث القرآن عن الآيات الكونية.

ثم فصل ذلك في عموم القُرآن. هذا تقريبًا حديث القُرآن عنها.

❍ **المسألة الأخيرة: ما علاقة التفسير العلمي بالإعجاز العلمي ثم بإعجاز القُرآن عمومًا.**

إن الإعجاز القُرآني له وجوه بشكل عام: فهناك الإعجاز اللغوي والبياني، وهناك الإعجاز التشريعي والإعجاز التأثيري، وهناك الإعجاز العلمي. والإعجاز العلمي هو الذي يقترب من التفسير العلمي، فما الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي.

❏ **التفسير العلمي**: هو الكشف عن زيادة معنى في آية أو آيات في ضوء الحقائق العلمية والكونية التجريبية.

❏ أما **الإعجاز العلمي**: هو تأكيد الكشوف العملية الحديثة الثابتة المستقرة للحقائق الواردة في القُرآن الكريم.

وقد يُعرف بأنه: إظهار صدق الرسول ρ بما حمله الوحي إليه من علمٍ إلهي ثبت تحققه ويعجزُ البشر عن نسبته إلى محمد ρ أو إلى أي مصدرٍ بشري في عصره.

وقيل: هو إشارة القُرآن الكريم أو السُنة النبوية إلى حقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبتَ عدمُ إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية زمن الرسول ρ.

والحقيقة الإعجاز العلمي يعتبر آية من آيات صدق النبي ρ فيما جاء به من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

❏ **ويظهر هذا الفرق إذا ركزنا على أمرين:**

▪ أحدهما: أن استخدام مكتشفات العلم التجريبي في بيان معاني الآيات القرآنية **هو التفسير العلمي**. وأن استخدام التفسير العلمي في إثبات صدق النبوة وكون القُرآن كلامُ الله لذكره ما لا يمكن للبشر أن يعرفوه في ذلك الوقت **هو الإعجاز العلمي**.

فكأن الإعجاز العلمي يكون أخصُ من التفسير العلمي، فلا يكون كل تفسير علمي يتضمن إعجازًا.

ويرى البعض أن التفسير العلمي هو نفسه الإعجاز العلمي، فهو يحكم أن كل آيةٍ تتضمن إشارة علمية في قضية كونية أو طبية أو نحوها فهو يعتبر من التفسير العلمي وهو أيضًا يحملُ إعجازًا علميًا.

والأقرب هو التوسط: فلا نقول أن التفسير العلمي هو مرادف تمامًا للإعجاز العلمي، لكن أيضًا لا نقول أنهما منفصلين تمامًا.

بل بينهما عمومٌ وخصوص، فالتفسير العلمي أوسع والإعجاز العلمي يعتبر أخص باعتبار أنه ليست كل آية نفسرها بآيةٍ كونية يلزم من ذلك أن تكون دليلًا أو ظاهرة في الإعجاز أو أنها دليل على الصدق ظاهر لمن يقرأ تفسير تلك الآية تفسيرًا علميًا.

"ضوابط التفسير العلمي التجريبي"

هذه الضوابط مهمة جدًا لكي نضبط بها هذا النوع من التفسير وهي قسمان:

1- الضوابط المتعلقة بالمفسِّر المتصدي للتفسير العلمي:

الضابط الأول: معرفة منزلة السلف وخصائصهم، وفضلهم كما تقدم في الحديث، ومقصودُه أن يكون في نفس المفسر المتصدي للتفسير العلمي تعظيم وإجلال للسلف وتفسيرهم.

- أولى هذه الخصائص: عمق العلم والفهم، فهم أصحابُ علمٍ عميق وفهمٍ دقيق.
- سلامة قلوبهم. فقلوبهم توصف بالسلامة من الأحقاد والضغائن والأمراض ونحو ذلك.
- أنهم شاهدوا التنزيل وحضروا الوقائع والغزوات والأحداث التي كان يتنزل القُرآن تعقيبًا عليها.
- معرفتهم أحوال العرب وعاداتهم.
- أنهم كانوا أهل اللغة خاصة الصحابة، فهم أولى من يُرجع إليه في معرفة غريب القُرآن.
- خلو عصرهم من التعصب والتفرق والاختلاف فإن ذلك جاء بعدهم، واستفحل بعدهم.
- قلة الخطأ في تفسيرهم، فهي في أفرادهم قليلة، أما أن يجمعوا على خطأ فهذا لا يمكن.

الضابط الثاني: معرفة أساليب السلف في التفسير.

فإنهم كانوا يفسرون باللفظ تارة، وكانوا يفسرون بالمعنى تارة، وكانوا أحيانا يفسرون بالقياس.

1- أما تفسيرهم باللفظ: فمثلًا في قوله Y: {وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)} [الضحى: 1، 2]، الضحى: تفسيره اللفظي أنه هو الزمان الذي يقع بين الفجر والظهر، فهو زمن معين محدد هو الضحى.

لكن إذا أردت أن تفسر تفسيرًا بالمعنى فتقول: أنه هذا قسم من الله Y بالضحى وهو تعظيم وهو دعوى أيضًا إلى تعظيم هذا الوقت الذي عظمه الله Y خاصةً إذا كان يتعلق به عبادات معينة.

2- التفسير بالمعنى:

فهو في قوله Y: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: 27] وردت في القُرآن متعددة، فجاء في تفسيرها عن الطبري مثلًا: إنه الخاسر هو الذي أنقص حظ نفسه، فسر الخسران بالنقص، وهذا التفسير هو اللغوي.

لكن هناك من فسره بالهلاك وهذا التفسير بالمعنى، والتفسير باللفظ هو الناقص كما مر.

ولابد أن نعرف أنواع دلالات اللفظ، وهي: دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام.

وللتفسير بالمعنى أقسام أو أنواع منها:

- **التفسير باللازم**، التفسير باللازم هو يفسر المعنى الآية تفسيرًا يكون لازمًا لهذا المعنى، مثل قوله Y: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي} [الأعراف: 16] "**فبما أغويتني**" فبعضهم فسرها: لعنةً، واللعن هو من لوازم الإغواء.

وقوله {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة: 135] الحنيف قالوا هو المقبل على طاعة الله Y. لكن فسره بالمائل، أي مائل عن معصية الله Y، فهو أيضًا من لوازمه. وهكذا.

➢ **التفسير بجزء المعنى**، مثل قوله Y {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة: 269]، فسرت بالنبوة، وفسرت بالفقه في الدين، وفسرت بالإصابة في القول والعمل. وهو جزء من المعنى وليس كل معاني الحكمة.

وأحيانًا قد يكون لسبب النزول مثل قوله تعالى: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: 238] فإن هذا فسر بالسكوت، الطاعة بالسكوت في الصلاة، وإلا فالقنوت هو معناه العام هو الطاعة.

أو ربما السياق نفسه يحمل عليه فقوله Y {كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ} [البقرة: 265] فإن الربوة هي المكان المرتفع، ولكن ابن عباس قيده بأنه الذي لا تجري فيه الأنهار باعتبار الوابل الذي ينزل عليه فيكون سببًا مما يحصل فيه من نبات وازدهار.

➢ **التفسير بالمثال**، بمعنى أن المفسر يذكرُ مثلًا من الأمثال التي يمكن تصور معنى اللفظ، مثل قوله Y: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8) } [التكاثر: 8] فإن هذا **النعيم** يقع على أنواع كثيرة أو على صور كثيرة، فمن يفسره بالماء البارد، أو يفسره بالزوجة، أو يفسره بالقصر، أو يفسره بغير ذلك، كلها مما يعتبر من نعيم الدنيا فهي أمثلة على هذا النعيم وليست تحديدًا أو تخصيصًا لمعنىً معين.

3- التفسير بالقياس: بمعنى أنه يقيس على الآية معنىً آخر باعتبار معنى يجمع بين المعنى المباشر للآية وبين المعنى الآخر إما بعلة أو جامع، فيقيس عليه معنىً آخر لم تنص عليه الآية ولم تدل عليه بظاهرها.

ويضرب مثل على ذلك مثلًا بتفسير الإمام مالك في قوله Y: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} [النساء: 86] فسرها بتشميت العاطس، فقاس تشميت العاطس على رد السلام.

وقوله تعالى: {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2)} [العاديات: 2]، الموريات هذه بعضهم فسرها بأنها إيقاد العداوة بين الأعداء. والموريات: ما يحصل من قدح بين الفرس عندما تجري وتعدوا بشدة فإنه يحصل احتكاك بينها وبين أقدامها مع الصخور فيحصل نوع من النار كأنها توري النار عندما تحتك بهذه الصخور.

والتفسير بالقياس له شروط:

- أن يكون المعنى صحيحًا.
- وأن يكون دلت عليه الآية.
- وأن يكون أيضًا أشار إليه اللفظ.
- وأن يكون أيضًا بينه وبين معنى الآية ارتباط.

❍ **الضابط الثالث: هو أن يكون عالمًا وعارفًا بقواعد التفسير والترجيح**، وهي قواعد مهمة جدًا مبثوثة في كتب المفسرين، ومن أكثر من يعمل هذه القواعد هو الطبري -رَحِمَهُ اللهُ- في تفسيره.

من هذه القواعد:

- أن ألفاظ القُرآن تحمل على المعهود من كلام العرب.
- حمل المتشابه على المحكم وليس بالعكس. أن كل آية فيها تشابه تحمل على محكم الآيات.
- مراعاة السياق في التفسير.
- لا يفسر القُرآن بالمصطلحات الحادثة، فإنما تحمل ألفاظ القُرآن على المعهود من لغة العرب.

❍ **الضابط الرابع: أن يحيط بأقوال السلف** لأنه قد يترك أقوالًا تكون هي الراجحة أو مضادة للتفسير الذي أتى به ويعتبر تفسير إضافيًا. وأن يعتقد أنها شاملة القُرآن، بمعنى أن السلف بمجموعهم قد فسروا القُرآن كله فلا يوجد شيء من القُرآن يمكن أن يكون خافيًا إلا وتصدوا له وبينوه.

وأن يُحسن التعامل مع هذه الأقوال فإنه يحيط بها ويكون عالمِا بهذه الأقوال وأيضًا يعتقد أنها لم يفت على هؤلاء السلف شيء من التفسير، وأيضًا يُحسن التعامل معها سواء حال الاتفاق أو حال الاختلاف.

يعني مثلًا: في سورة النازعات {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30)} [النازعات: 30]، فالدحو هذا يأتي بمعاني متعددة عند السلف لكن لو جاءنا معنى جديد في تفسير الدحوا لا يناقض تفسير السلف فيقبل.

وأن يُحسن التعامل مع أقوالهم، سواءً كانت متفقة أو مختلفة. وأضرب مثال على ذلك: الرتق. قال الله Y: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)} [الأنبياء: 30]، فالرتق هنا جاء عن السلف تفسيرات له.

فالقول الأول: إنه السماوات والأرض كانتا قطعة واحدة وهو الرتق، والفتق هو فصل السماء عن الأرض. ففسروها باعتبار أن الرتق والفتق يعود على السماوات والأرض معًا.

والقول الثاني: جعل الرتق والفتق يعود إلى السماء على حدة، وعلى الأرض على حدة، فالسماء كانت رتقًا بمعنى كانت قطعة واحدة ثم فتقت إلى سماوات، والأرض كانت قطعة واحدة ثم فتقت إلى أراضين.

والقول الثالث: إن المراد بالرتق هو الظلمة، والمراد بالفتقُ هو دخول الضوء.

القول الرابع: أن المراد بالفتق أو الرتق بأن السماء كانت لا تمطر ففتقت بالمطر، وكانت الأرض لا تنبت ففتقت بالنبات، فجعل الرتق والفتق يتعلق بالنسبة للسماء بالمطر وبالنسبة للأرض بالإنبات.

ولو تأملنا في هذه الأقوال لوجدنا أن القول الأول والثاني يعني لا يُعلم إلا من خلال الوحي، وكذلك الظلمة وأنه الفتق هو بالنهار أو بالضوء، هذه غير معلومة إنما علمت من خلال القُرآن. فيكون الله في قوله: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الأنبياء: 30] أراد بالرؤيا هنا المراد بها الرؤية القلبية، يعني العلم أي يعلموا.

القول الرابع وهو القول بالفتق بالنبات وهي بالنسبة للأرض والفتق بالماء أو بالمطر أو بالغيم بالنسبة إلى السماء هذا أمرٌ مشاهد، وبالتالي تكون الرؤية (ألم ير) تكون الرؤية بصرية، ويكون هذا القول هو أقربها وأرجحها باعتبار أنه هو المشاهد وهو ينطبق لأنه يحاج الكفار بأن هذا أمرٌ يرونه.

والقول الخامس الذي ذكره أصحاب التفسير العلمي التجريبي: أن هذا يتعلق بنظرية الانفجار العظيم، وهي أن الكون تكون إنه حصل انفجار عظيم فقد كان الكون قطعة واحدة نشأ عنها هذه الأجرام العظيمة. وهذا قريب من القول الأول الذي يقول أن السماء والأرض كانتا قطعة واحدة، فبالتالي لا يرد.

❍ **الضابط الخامس: اعتقاد حجية تفسير السلف والعصمة لمجموعه**، فإن مجموع تفسير السلف يعتبر تفسيرًا معصومًا لا يمكن أن يجتمعون فيه على خطأ، فهم معصومون في مجموعهم لا بأفرادهم؛ فالحق لا يخرج عن مجموع تفسيرهم، وإذا وجد تفسير مناقض لهم مردود.

2- ضوابط أُخرى تتلق بالآيات المفسرة، وهي بمثابة شروط مهمة جدًا أن تُلتزم:

❍ **الضابط الأول: أن يكون القول المفسر به صحيحًا في ذاته.**

فالمفسر تفسيرًا علميًا عندما يأتي لآية ويفسرها تفسيرًا علميًا تجريبيًا هو يرى أنها تدلُ عليه.

فنقول له: يجب أن يكون التفسير في ذاته صحيح. فكيف نعرف أن هذا التفسير صحيح؟

وهذا نعرفه من خلال أمرين: ■ أن تدل عليه اللغة. ■ ولا يخالف مقطوعًا به في الشريعة.

➢ الأمر الأول: أن تدل عليه اللغة (أن تكون على معهود اللغة عند العرب الذين نزل عليهم القرآن، وكذلك موافقة أساليبها وألفاظها لأساليب العرب) ولا نأتي بمعاني جديدة وليدة لم تكن مستعملةً عندهم.

مثل قوله Y: { إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا } [الرحمن: 33]، الأقطار جمع قطر وهي الناحية أو الجانب. فيأتي واحد يفسرها بالقطر الهندسي المعروف، فهذا خطأ.

➢ الأمر الثاني: ألا يخالف مقطوعًا به في الشريعة. مثل الذي يفسر قوله Y: {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} [نوح: 14] يقول الأطوار هي أطوار التطور التي ذكرها دارون. فهذا مناقض لشريعة الله Y وللقرآن.

❍ **الضابط الثاني: أن تحتمل الآية المفسرة هذا القول الحادث وتدل عليه.**

قد تكون الآية فيها تفسيرات متعددة، المهم أن تكون الآية قد دلت على هذا التفسير الحادث الذي دلت عليه الحقيقة العلمية. وهذه الدلالة قد تكون بجزء المعنى، وقد تكون بالمثال، وقد تكون بغير ذلك.

فقوله Y: { فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} [الواقعة: 75]، فورد عن السلف في تفسيرهم مواقع النجوم هنا قالوا: هي نجوم نزول القرآن، أي مواقع نزول القرآن وتعدده.

القول الآخر: قالوا المراد النجوم التي نراها في السماء، واختلفوا في تفسيرهم مواقع، قيل: هي مواقعها عند غروبها وعند شروقها، وقيل: المواقع هي البروج، بروج هذه السماء كالجدي والميزان ونحو ذلك.

قال بعض المعاصرين: المراد بمواقع النجوم النظرية الجديدة أن الذي نراه في السماء هو أثر هذه النجوم وليست هي النجوم نفسها. وقد أقسم الله Y بهذه النجوم المشاهدة نفسها في قوله: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} [النجم: 1]، فهذا التفسير يناقض الآيات ويخالف ما ورد عن السلف (على اختلاف أقوالهم)، فلا يُقبل.

❍ **الضابط الثالث: ألا يعود التفسير الحادث بالإبطال لقول السلف بالكلية.**

بأن يأتي المفسر لآية ويقول إنها تدلُ على معنى جديد دلت عليه الحقيقة العلمية الفلانية. ثم نجد التفسير الجديد يناقض ما قاله السلف، فهذا غير مقبول. أما إذا كان يبطل أحد الأقوال فهذه مسألة أُخرى.

مثال هذا قوله Y: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [النمل: 88].

فبعض المفسرين يقولون: هذه الآية تتعلق بحركة الجبال والأمر اكتشف حديثًا وأنها تتحرك حركة هائلة جدًا بالنظر إلى حركة الأرض، وذكروا حول ذلك كلام طويل في هذا الأمر. لكن تفسير السلف - الذي رجحه الطبري - يرى أن المراد بها هو في الآخرة، ولاشك أن السياق يدلُ على أن هذا يحصل في الآخرة.

❍ الضابط الرابع: ألا يقصر المفسر معنى الآية على التفسير الحادث.

فيقول المفسر: إن هذه الآية تدلُ على كذا بدلالة الحقيقة العلمية التي اكتشفت وهي حقيقة ثابتة وصحيحة إلى آخره ولا تدل إلا على هذا المعنى، ثم يرد كل ما جاء عن السلف في تفسير الآية.

فإن كان تفسيرًا صحيحًا ملتزم بالضوابط السابقة؛ فإنه يضاف إلى التفاسير، بشرط أنه لا يكون أيضًا مناقض لتفسير السلف. أما أن يُقصر المعنى عليه ويُجعل تفسير السلف مردود؛ فهذا لا يصح.

❍ وعمومًا أحوال المفسرين تفسيرًا علميًا تجريبيًا مع أقوال السلف هم على أحوال:

- بعضهم يهمل أصلًا ما جاء عن السلف من تفسير، يهمله إهمالًا تامًا، فيتحدث عن الآية وما دلت عليه من الحقيقة العلمية، ولا يذكر تفسير السلف إطلاقًا ولا يلتفت إليه.
- بعضهم يذكر أقوال السلف ويحشدها جميعًا، لكنه في الآخر يرى أن المعنى الذي دلت عليه الآية هو المعنى الجديد دون بقية الأقوال.
- وبعضهم يذكر التفسير الذي توصل إليه ويصححه، ثم يرد التفسير الذي ورد عن السلف ويضعفه، وهذا أقبح من الأول.

خصائص منهج القرآن في عرض الآيات الكونية والنفسية

والمقصود بالآيات **الآفاقية**: هي التي تتعلق بالآفاق بالكون، سواءً كانت تتعلق بالسماء وما فيها، أو بالأرض وما فيها. والآيات **النفسية**: هي التي تتعلق بنفس الإنسان، خلقه ومراحله وكل ما يتعلق به.

فقد سلك القرآن منهجًا بديعًا في عرضه للآيات الآفاقية والنفسية، وهذه الخصائص تكشف عن روعة هذا المنهج وجماله وجلاله، وتنوعت هذه الخصائص فشملت جوانب عديدة:

منها: ما يتعلق بالمؤمن ومن ينبغي أن يكون عليه حيال هذه الآيات.

ومنها: الكيفيات التي عرض بها القرآن هذه الآيات.

ومنها: الأسلوب والعبارة التي تناولها بها.

ومنها: تحقيق القرآن لمقاصده الكبرى في هذا الصدد.

❍ **الخاصية الأولى: أن القرآن دأب على تعظيم الآيات الآفاقية والنفسية، والإشادة والامتنان بها تحقيقًا لمقاصدها وتنبيهًا لشأنها** (تحقيقًا لمقاصدها أي الآيات الآفاقية والنفسية، وتنبيهًا لشأنها أي: شأنها العظيم)، وهذه الخاصية ظهرت من وجوه: كثرتها، وتكرارها، وتصدرها، والقسم بها، وكونها رحمة أو عذاب.

الوجه الأول: كثرة الآيات القرآنية التي تناولت الآيات الآفاقية والنفسية، بل لا تكاد سورة من القرآن تخلو من ذكر الآيات الآفاقية والنفسية، لاسيما السور المكية، وهو في السور المدنية قليل.

الوجه الثاني: هو تكرار ذكر هذه الآيات الآفاقية بأساليب مختلفةٍ ومتنوعة، فكم تكرر في القرآن ذكر خلق الله للسماوات والأرض، تسخيرهما وما فيهما لتحقيق الغاية من خلق الإنسان.

ويعرض كل مرة على هيئة جديدة (أي أنه تكرار ليس تكرارًا مملًا وغير مفيد، بل هو مفيد ونافع) بما يتناسب مع موضوع السورة وأغراضها، مما يجعل هذا التكرار غايةً في الروعة والإعجاز.

الوجه الثالث: تصدر هذه الآيات الكونية أو الآيات الآفاقية والنفسية كثيرًا من سور القرآن ومعظم آيات المفصل، فمنها: سورة الأنعام، ويونس، والرعد، والنحل، والحج وغيرها.

الوجه الرابع: هو إقسامه تعالى بجملةٍ من الآيات الآفاقية والنفسية، وكل ما أقسم به فهو معظم وآيةٌ جليلةٌ تناسب المقسم عليه.

كقوله تعالى: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)} [الشمس: 1 – 10].

أي: قد أفلح من طهر نفسه من الذنوب ونقاها من العيوب، وخاب من دس أو دنس نفسه بالرذائل واقتراف الذنوب، ولا ريب أن المقسم عليه أمرٌ شأنه عظيم فهو يتكلم أو يتناول مصير هذا الإنسان، إما الى السعادة الأبدية، وإما إلى الشقاء الأبدي ولاشك أن هذا أمرٌ عظيم.

ومنها قوله Y: {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ} [الذاريات: 1: 8]. ثم أقسم سبحانه وتعالى بهذه الأمور على صدق وعده، ووقوع جزاءه بالثواب والعقاب.

وكقوله: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 1 – 4]. فالله Y أقسم بالنجم عندها هويه ورمي الشياطين به عند استراق السمع، أقسم به على تنزيه رسول الله ρ وبراءته مما نسبه إليه أعداءه من الضلال والغيب.

الوجه الخامس: أنه جعل الآيات الآفاقية والكونية التي امتن الله بها على عباده أنها رحمةٌ لهم.

وهي في الغالب تكون ضمن اللفظ العام كلفظ: الخلق، أو الجعل، أو التسخير والتي تقترن كثيرًا بتلك الآيات الآفاقية، وقد ينص القرآن في مواضع عدة على أن تلك الآية هي رحمةٌ للعباد.

كما قال Y: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا } [الفرقان: 48، 49].

وقوله: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [القصص: 73]. فإذا كانت الآيات الآفاقية رحمةً للعباد، وبها معاشهم وهو مضطرون إليها، فلا ريب ستكون محل عنايتهم وتعظيمهم وحفاوتهم.

الوجه السادس: أنه جعل بعض الآيات الكونية سببًا للعذاب، وهو قابل الوجه السابق كالنجوم التي يرجم بها الشياطين.

كالريح التي عذب الله بها قوم عاد، قال تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر: 18 – 21].

وكالمطر الذي سلطه الله على قوم نوحٍ وقوم لوط، قال الله تعالى عن قوم نوح لما كذبوا نبيهم: {فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ} [الأعراف: 64].

وقال عن لوط وقومه لما كذبوه: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [الأعراف: 83، 84].

فإذا كانت هذه الآيات الآفاقية مهيأةً لأن تكون عذابًا على البعض، فلا ريب سيكون أثرها على النفوس أشد، وكما أن الناس يرغبون فيما جعل الله فيها من الرحمة، فسيرهبونها أيضًا بما جعل فيها من العذاب، فستكون مرغوبةً مرهوبة مما سيزيد من العناية بها ويجعلها معظمةً في النفوس، والسعيد إلى من تنبه إلى أن مسخرها هو أكبر وأجل وأعظم.

❍ **الخاصية الثانية: أن القرآن أناط بكثيرٍ من الآيات الآفاقية والكونية جملةً من الوظائف اللصيقة بالإنسان.**

وهي جزءٌ أصيلٌ وكبيرٌ من البيئة التي يعيشها وهي مألوفةٌ ومسخرةٌ ومذللة له، فالآيات الكونية المبثوثة في العالم العلوي كالسماء، والشمس، والقمر، والنجوم وغيرها من هذه الآيات.

وكذلك في العالم السفلي بما في الأرض من جبالٍ، وسهولٍ، وبحار، وأنهار، وأودية، ورياح، ودوابٌ مختلفة قد أنيط بها وظائف محددة لصيقةٌ بالإنسان وخادمةٌ له، فهي قريبةٌ من مشاعره وأحاسيسه.

كقوله Y: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: 10 - 18].

هذه الآيات تسوق لبيان كمال قدرة الله تبارك وتعالى وعظيم منته على عباده، ولهذا قال الله Y: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [النحل: 12]، أي لمن لهم عقولٌ يستعملونها في التدبر والتفكر في ما تراه وتسمعه، لا الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

ومن الشواهد قوله Y: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: 32، 34].

ويترتب على هذه الخاصية المهمة أمور:

تساوي الناس في أصل الشعور بهذه الآيات الكونية وإدراكها، وإنما يتفاوتون في كمال إدراكها.

وهذا الإدراك لا يحتاج إلى واسطةٍ من الآلات ونحوها، فإدراك هذه الآيات أمرٌ سهلٌ ميسرٌ قريب.

وما يحصل بينها وبين الإنسان من أُنس، ومحبة، وعشق، هذا ظاهر وذكرناه في أثناء الاستدلال بالآيات التي مرت قبل قليل.

وأن هذه الآيات مسخرةٌ للإنسان، فهي تحقق مقاصده ومطالبه في العيش في هذه الدنيا، إذًا هي تحقق مقاصد الإنسان ومطالبه في العيش في هذه الدنيا، فكل هذه الوجوه ترتبت على هذه الخاصية وتؤكد هذه الخاصية وتجليها.

❍ الخاصية الثالثة: أن القُرآن يتناولُ الآيات الكونية بعبارةٍ جلية وأسلوبٍ سهلٍ قريب.

فطريقة تناول القُرآن لهذه الآيات (الآفاقية أو النفسية) بعبارةٍ جليةٍ وأسلوبٍ سهلٍ قريب، لأن الغرض الأكبر من تلك الآيات وهو تقرير التوحيد وأمر المعاد ونحوها من أصول الدين بما تضمنته من حقائق جليلة، ولما كان المخاطبون بهذا القُرآن مختلفين في مستوى إدراكهم كما أنهم مختلفون في علومهم وثقافاتهم بحسب الزمان والمكان، جاء عرض القُرآن للآيات الكونية والنفسية بهذه الكيفية القريبة الميسرة بحيث يتحقق بها على الأقل الحد الأدنى من العظة والاعتبار وهو كافٍ في إقامة الحجة وتحقيق مقصود القُرآن من هذا العرض.

فتعود هذه الخاصية في أصلها إلى قوله: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: 17] أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده والانتفاع به؛ لأنه أحسنُ الكلام لفظاً وأصدقه معنىً وأبينه تفسيراً.

ومثاله قوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)} [الغاشية: 17 – 20].

قال الحافظ ابن كثير: فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكبٌ عليه، والسماءُ التي فوق رأسه والجبل الذي تجاهه والأرض التي تحته على قدرة الخالقِ، أو على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الربُ العظيم الخالق المتصرف المالك وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه. اه.

فأمر تعالى عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته، وخاطب بمثل هذه الآيات أدنى الناس علماً وثقافة. ونبه إلى دلائل توحيده بأسهل عبارةٍ وأوضحها من خلال أمورٍ يعيشونها في حياتهم اليومية.

وتأمل قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32)} [عبس: 24 – 32].

فهذه الآيات الواضحة التي يدركها الأُمي كما يدركها المتعلم هي دعوةٌ للإنسان بالنظر في أخص حاجاته ومطالبه المادية في هذه الدنيا، وهو الطعام والشراب بأسلوبٍ وكلماتٍ هي الغاية في السهولةِ والقرب مع ما تحمله هذه الآيات من العبرةِ والتذكرةِ الكُبرى، فمن كان عنده أدنى تأمل لهذه الآيات يدركُ أن إخراج طعامه من الأرض كما هو مشاهد هو دليلٌ على إخراجه هو منها بعد موته استدلالاً بالنظيرِ على النظير.

وقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)} [الواقعة: 63 – 74]

فهذه الآيات تتناول أخص حوائج الإنسان وهو الطعام والشراب من حيث طريقة تحصيله، وكذلك النار كوقودٌ لا يستغني عنه الإنسان البتة. وقد صيغت بأسلوب الاستفهام بكلماتٍ واضحةٍ مؤثرة.

❍ **الخاصية الرابعة: أنه يتناول الآيات الآفاقية على اختلافها وكأنها آيةٌ واحدة.**

فمنهج القُرآن في عرض الآيات الكونية أنه يعرضها باعتبارها منظومةً واحدة محكمةً بديعةً في خلقها، وبهذا تظهر للناظر روعةُ تلك الآيات الكونية، لا في أفرادها فحسب بل في تناسقها وترابطها ترابطاً محكماً يأخذُ بالألباب، وهذا يشهد أن هذا الكون وحدةً واحدة بُني بإحكامٍ عجيب، وخلبقه ومبدعه واحد كاملٌ.

ومن ذلك قوله Y: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)} [يس: 37 – 40].

ولما كان الليل هو الأصل فإن ضوء النهار يغشاه في نصف الكرة الأرضية ثم ما يلبث هذا الضوء أن يُنزع عن الليل كما ينزعُ جلد الشاةِ عنها فتعود الظلمة إلى هذه النصف من الأرض.

ولما كانت الآية الكونية مرجعها إلى ضوء الشمس بين أنها دائماً تجري لمستقرٍ لها، قدره اللهُ لها لا تتعداه ولا تقصر عنه. وأن ليس لها تصرف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله تعالى، فإنه بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام، وبعلمه جعلها مصالح لعباده ومنافع في دينهم ودنياهم.

وقوله تبارك وتعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [لقمان: 10، 11].

ولما كانت الأرض ممهدةً لحياة الإنسان ألقى فيها الجبال العظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض ولما استقرت بساكنيها، ونشر في الأرض من جميع أصناف الدواب التي هي مسخرةٌ لبني آدم ولمصالحهم ومنافعهم. وأنزل من السماء ماءً مباركا أنبت الله به نباتًا من أزواجًا شتى فرتعت فيه الدواب المنبثة وسكن إليه كل حيوان. والمتأمل في يرى أن العلاقة ظاهرة بين هذه الآيات في السماء وهي سقفٌ محفوظٌ للإنسان، والأرض مهادٌ له وقد رُسيت بالجبال وبُث فيه الدواب لخدمة مصالحه.

❍ **الخاصية الخامسة: أنه يعرض الآيات الآفاقية والنفسية مقرونةً بالغرض التي سيقت له،** كالتوحيد والنبوة والبعث. بيد أن أهم الأغراض التي عني القرآن بها غرضين:

الأول: الاستدلال بتلك الآيات على كمال الله تعالى، في أسمائه وصفاته وأفعاله.

الثاني: الاستدلال بها البعث والنشور.

فمن الأول قوله Y: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [غافر: 61 – 65].

ومن أكثر الصفات اقترابًا بالآيات الآفاقية والنفسية، صفات القدرة والعلم والحكمة مع ... امتنانه Y على عباده فيما خلق لهم وسخر من آيات.

ومن الوجه الثاني دلالته على البعث قوله Y: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [الحج: 5- 7].

عرضت هذه الآيات دلائل البعث، بداية من أطوار الحياة في جنين الإنسان، ودورة حياة النبات، مقررًا تشابه الصورتين للإنسان والنبات، وبين أن الله هو الحق وأنه يُحيي الموتى وأنه على كل شيءٍ قدير، وأن الساعة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وقوله Y: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق: 6 – 11].

يقول السعدي رحمه الله عن تفسيرها: وحاصل هذا أن ما فيها من الخلق الباهر والشدة والقوة دليلٌ على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحُسن والإتقان وبديع الصنعة وبديع الخلقة دليلٌ على أن الله أحكم الحاكمين وأنه بكل شيءٍ عليم. وما فيها من المنافع والمصالح للعباد دليلٌ على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عم كل حي.

وهناك أغراض أخرى دينية ودنيوية تقترن بالآيات، وقد يقتصر على الغرض الديني فقط كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: 62]، وقد يقتصر على الغرض الدنيوي فقط كقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا} [النبأ: 10، 11].

❍ **الخاصية السادسة: أنه القرآن يقرن غالبًا بين الآيات الآفاقية والنفسية لحكمةٍ بالغة**، وهذا الاقتران يأتي مجملاً ويأتي مفصلًا.

أما إتيانه مجملاً ففي قوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [النحل: 3، 4] فقرن بين خلق السموات وبين خلق الإنسان، ولكنه جاء مجملًا، فخلق السموات والأرض يتضمن آيات كثيرة، أجملها بكلمات معدودة.

وقوله: {بِالْحَقِّ} يدل على أن خلقها كان لحكمةٍ بالغة، كذلك أوجز في آية خلق الإنسان وأطوار هذا الخلق، وأشار قوله: {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} إلى حكمةٍ عظيمة من خلق الإنسان على هذا النحو.

ومن صور إتيانه مجملاً أيضًا قوله تعالى: {وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}[الذاريات:20-22].

ومنه أيضًا قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}[الليل:1-4] وهنا أيضًا قرن بين الآيات النفسية والآيات الآفاقية، لكنه بإجمال.

أما إتيان الاقتران مفصلًا، فكقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[الأنعام:95-99].

جاء الحديث في هذه الآيات عن خلق الإنسان ونشأته في آية واحدة توسطت الآيات الآفاقية.

فالآية الرابعة تناولت آية أخرى من آياته تعالى الدالة على عظيم قدرته ولطيف صنعه وحكمته، وهي أنه أنشأنا تعالى مع كثرتنا من نفس آدم عليه السلام، وصار الإنسان في خلقه يمر بأطباقٍ عديدة؛ ولذا قال: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ}. قال أبو حيَّان: "**وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ النَّظَرُ أَنَّ الِاسْتِقْرَارَ وَالِاسْتِيدَاعَ حَالَانِ يَعْتَوِرَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ**" أي: يطرآن عليه، "**وَفِي كُلِّ رُتْبَةٍ يَحْصُلُ لَهُ اسْتِقْرَارٌ وَاسْتِيدَاعٌ اسْتِقْرَارٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا قَبْلَهَا وَاسْتِيدَاعٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا بَعْدَهَا وَلَفْظُ الْوَدِيعَةِ يَقْتَضِي الِانْتِقَالَ**". اهـ.

ثم عادت **الآية الخامسة** لتناول آية كونية أخرى، وهي خلق أنواع النبات من ماءٍ واحد.

ويلاحظ في هذه الآيات الكونية والنفسية أن هناك تشابهًا بينها من حيث أصل مادتها، ومن حيث مرورها بأطوار ومراحل متعددة حال خلقها، إشارةً إلى أن خالقها ومدبرها واحد، لا إله غيره، ولا رب سواه.

ولذلك فلعل الغرض من عرض هذه الآيات الكونية والنفسية على هذا النحو هو لأمورٍ من أهمها:

أولاً: أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- هو موجدها من العدم، وأنه تعالى جعل لها أصلًا تتولد منه، فكما أن الحب والنوى هو أصل النبات، فكذلك آدم هو أصل الإنسان، بل إنها تشترك في أن سبب تولدها هو الماء، فماء السماء هو سبب نبات الأرض، والماء الذي يخرج من بين الصلب والترائب هو سبب خلق الإنسان.

الثاني: هو أنه كما أن النبات يمر في نشأته ونموه في أطوارٍ تنتهي به إلى ثمارٍ مختلفة الطعوم والألوان، فكذلك الإنسان في خلقه ونشأته يمر بأطباقٍ وأطوار ومراحل تنتهي به إلى آية وثمرةٍ إما عظيمة المرارة أو عظيمة الحلاوة، فهو إما إلى جنة أو إلى نار.

وهذا الغرض ظاهر في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ * وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ}[المؤمنون:12-21].

فالآية الأولى بينت أصل خلق الإنسان. والآية الثانية بينت الماء الذي جعله الله سببًا لتولد الإنسان. والآيات الثلاث بعدها بينت أطوار خلقه في الدنيا إلى منتهاه في الآخرة. والآيات الأربع الباقية تناولت السماوات السبع، والأرض وإحياء الله إياها بماء السماء بما ينبت فيها من أنواع الأشجار والثمار.

وقوله تعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[الروم:17-24].

وذلك أن الله تعالى لما بيَّن كماله في أسمائه وصفاته وأفعاله ونزه نفسه عن النقص، بين أنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وهذه قاعدة عامة تنطبق على صور كثيرة من دلائل قدرة الله تعالى.

وذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- من ذلك إحياء الأرض الميتة بالمطر وخلق الإنسان من تراب، وبين أصل خلقه وأشار إلى المراحل والأطوار التي يمر بها، ثم فصَّل في كيفية توالد الإنسان بخلق الزوجة، بقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}، ثم أدمج في بقية الآيات بين الآيات النفسية والآيات الآفاقية على نحوٍ بديع، فجمع بين خلق السموات واختلاف الألسنة والألوان.

وذكر الطاهر ابن عاشور: "**أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ آيَةُ اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ وَالْأَلْوَانِ وَأَنَّ مَا تَقَدَّمَهُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض تمهيد لَهُ وَإِيمَاءً إِلَى انْطِوَاءِ أَسْبَابِ الِاخْتِلَافِ فِي أَسْرَارِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**".

كما بيّنت الآية التي تليها تسخير الليل والنهار للإنسان ليسكن ويطلب المعاش، وفي الآية الأخيرة دمج بين ذكر آيات البرق والمطر وحال الناس معها.

❍ **الخاصية السابعة: أن القرآن يدمج بين عالم الغيب وعالم الشهادة ليستدل بالثاني على الأول.**

فمن ذلك قوله تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}[القمر:1] فقرن بين الأمر الغيبي وهو قرب الساعة وحتمية وقوعها، وبين أمر مشاهد وهو انشقاق القمر أمام أعين قريش، وهو يشير إلى مقدمات القيامة التي منها تعطل الآيات الكونية وخرابها.

ومنه قوله: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} آية مشاهدة، {وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ} أمر غيبي [البروج:1-2].

ومنه قوله تعالى: {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} أمر غيبي، {وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} أمر معلوم [القيامة:1-2]، سُميت لوامة لكثرة ترددها وتلومها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها.

❍ **الخاصية الثامنة: أن القرآن كثيرًا ما يقرن بين الآيات الكونية وبين الآيات القرآنية إشارة إلى وحدة مصدرها، وهو الله عَزَّ وَجَلَّ.**

قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[الرعد:2-4].

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[الأعراف:54].

قال السعدي: "**أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية**". انتهى كلامه.

وقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الأَبْصَارِ} إلى قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[النور:43-46].

فلما ذكر تعالى من الآيات الآفاقية ما يتعلق بإنزال المطر والبَرَد وآياته في تقليب الليل والنهار، وآياته فيما خلق من أنواع الدواب، وقد جاء عرض هذه الآيات على أحسن وجه، ختمه بالتمدُّح بآيات القرآن والإشادة بها.

❍ **الخاصية التاسعة**: **كثيرًا ما يقرن بين الوحي الذي تحيا به القلوب والغيث الذي تحيا به الأرض** لغاية جليلة، وهي إظهار أهمية واضطرار العباد للوحي، وأنهم أشد اضطرارا إليه من الطعام والشراب.

قال تعالى: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[النحل:64-65].

يقول الحافظ ابن كثير عند تفسيرها: "**وَكَمَا جَعَلَ تَعَالَى الْقُرْآنَ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ الْمَيِّتَةِ بِكُفْرِهَا، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَا يُنْزِلُهُ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ**".

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ} إلى قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[الزمر:21-23].

بيَّن في هذه الآية الأولى كيف يحيي الأرض بالماء النازل من السماء، فإذا انقطع هذا الماء وذهب أثره على الأرض عادة قاحلة. وفي الآية الثانية ذكر القلوب القاسية التي لم تستضيء بنور الوحي ولم تتشرب غذاءه، وفي الآية الثالثة أشاد بالقرآن وبالوحي النازل، فبه تحيا القلوب وتزول عن قسوتها وجدبها.

ومن **الشواهد** قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} إلى قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الحديد:16-17].

في **الآية الثانية** تمثيل لآثار الذكر في القلوب وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض.

قال الحافظ ابن كثير: وقوله: "{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} **فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ، تَعَالَى، يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسْوَتِهَا، ويهدي الحيارى بَعْدَ ضلتها، ويفرّج الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الْهَتَّانِ الْوَابِلِ كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ**". انتهى.

❍ **الخاصية العاشرة**: إن هذه الأجرام التي أبدع الله فيها الكون على عظمها وإحكامها لا تملك لنفسها شيئًا، فهي مسيرةٌ ولها مبتدأ ومنتهى، فهي خلقت لغاية، ثم ليكون تغيرها وخرابها علامة على قيام الساعة، ثم في نهايتها ترمى هذه الأجرام في النار، ومعظم شواهد هذه الخاصية جاءت في سور المفصل في قوله تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}[الطور:9-10] إلى آخر الآيات في سور المفصل.

ونستهل الكلام عن الآيات الثلاث تعرض لنا آيات الله في مخلوقاته العظيمة، وهي الشمس والقمر والأرض. فقال في الآية الأولى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} تكلم عن الأرض، ثم قال: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} فبيَّن حركة الشمس في النهار، ثم في قال: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} نقلنا إلى حركة القمر في الليل.

"نماذج من التفسير العلمي في مجالات الكون"

الأنموذج الأول: وهو أنموذج يتعلق بالإشارات الفلكية.

1- قال الله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ }[يس:37].

نريد أن نتعرف على معنى السلخ (وهي الكلمة المؤثرة هنا)، والسلخ في لغة العرب هو الكشط والإزالة بالكلية عن باقي جميع جسم المكشوط. فالسلخ هو نزع بالكلية، كما يُنزع الجلد من صاحبه.

وَيُقَال: سلختُ الشَّهْرَ إِذا خرجْتَ مِنْهُ فصرْتَ فِي أخرِ يومٍ مِنْهُ.

التفسير عند السلف: يقول الطبري: **"نَنْزِعُ عَنْهُ النَّهَارَ وَمَعْنَى مِنْهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: عَنْهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: نَسْلَخُ عَنْهُ النَّهَارَ، فَنَأْتِي بِالظُّلْمَةِ وَنَذْهَبُ بِالنَّهَارِ ... فَكَذَلِكَ انْسِلَاخُ اللَّيْلِ مِنَ النَّهَارِ"** ليس مجئ لليل، بل الليل كان موجودًا ولكن النهار كان يغطيه، فلما سُلخ منه النهار ونُزع منه ظهرت الظلمة ورجع الليل.

وَقَالَ قَتَادَةُ: هو كقوله: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}. فعلق الطبري: "وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ قَتَادَةُ عِنْدِي بَعِيدٌ، وَذَلِكَ أَنَّ إِيلَاجَ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ إِنَّمَا هُوَ زِيَادَةُ مَا نَقَصَ مِنْ سَاعَاتِ هَذَا فِي سَاعَاتِ الْآخَرِ، وَلَيْسَ السَّلْخُ مِنْ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ؛ لِأَنَّ النَّهَارَ يُسْلَخُ مِنَ اللَّيْلِ كُلِّهِ، وَكَذَلِكَ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ كُلِّهِ، وَلَيْسَ يُولِجُ كُلَّ اللَّيْلِ فِي كُلِّ النَّهَارِ، وَلَا كُلَّ النَّهَارِ فِي كُلِّ اللَّيْلِ" اهـ.

وقال البغوي: **"وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْلَ هِيَ الظلمة والنهار دَاخِلٌ عَلَيْهَا، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ سُلِخَ النَّهَارُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَظْهَرُ الظُّلْمَةُ"** اهـ. وقال أبو السعود: **"أي: داخلونَ في الظَّلامِ مفاجأةً، وفيه رمزٌ إلى أنَّ الأصلَ هو الظَّلامُ والنُّورُ عارضٌ"**. هذا ما ذكره مفسري السلف، وهو كلامٌ متوافق.

ويقول أرباب التفسير العلمي: **"أنه تأكد بما لا يقبل الشك أن الكون كلَّه يعيش في ظلمة سرمدية موحشة، وقد توصل إلى هذه الحقيقة وشاهدها بعينه رواد الفضاء عندما هيأ الله لهم أسباب الخروج عن كوكب الأرض والسباحة في الفضاء خارج الأرض المتأتي لها من الشمس، والمحيط بها وكأنه هالة من النور لا يكاد يجاوز 200 كم، على الرغم أن المسافة بيننا وبين الشمس 150 مليون كم.**

فالآية شبهت خروج النهار من الليل بانسلاخ الجلد المسلوخ، وذلك بأنه لما كانت مبادئ الصبح عند طلوعه ملتحمة بالليل، وكأنهما برزخٌ لا يبغيان، فأجرى عليهما اسم السلخ وكأن ذلك أولى من لو قيل خرج أو يخرج، لأن السلخ أدلَّ على الالتحام من الإخراج، وهذا تشبيه في غاية المناسبة، فالله -عَزَّ وَجَلَّ- ينزع النهار، طبقة النهار من محيط الأرض التي تغشاها الليل كما ينزع جلد الحيوان عن لحمه، ولا يكون ذلك إلا بدوران الأرض حول محورها -يقولون- أمام الشمس؛ فيترتب عليه الذي يقوم بسلخ هذه الطبقة الرقيقة من النور؛ ولذلك رأينا التعبير القرآني كيف عبَّر عن حالة خروج النهار وغشيان الليل المظلم بهذه العبارة اللطيفة، مستعير لفظ السلخ بدل خروج، وهو تعبير لا يمكن أن يكون من خيال شاعر أو إيحاء ساحر، بل لا بد أن يكون ذلك التعبير البديع صادر عن عالمٍ بتلك الأحوال الكونية الخارجية تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

2- وقال الله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[يس:38] فيه 3 أقوال:

1. وَالشَّمْسُ تَجْرِي إلى مَوْضِعِ قَرَارِهَا، وَبِذَلِكَ جَاءَ الْأَثَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيّ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ بِالرُّجُوعِ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَكَانِهَا، وَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا» متفق عليه.

يقول الحافظ ابن حجر تعليقا على حديث أبي ذر: "**وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِقْرَارِ وُقُوعُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِنْدَ سُجُودِهَا وَمُقَابِلُ الِاسْتِقْرَارِ الْمَسِيرُ الدَّائِمُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْجَرْيِ** " فإذًا هناك استقرار في كل يوم وليلة، وهناك مسير يقابله في كل يوم وليلة؛ وهو الجري.

وكونها تسجد تحت العرش لا يقتضي مفارقتها لفلكها وانتظامها في مسيرها بالنسبة للأرض، فهي دائمة الطلوع على جزء من الأرض، والأوقات بالنسبة لأهل وللأرض تختلف بمقدار سيرها.

2. وَقَالَ قَتَادَةَ: لِوَقْتِهَا وَلِأَجَلٍ لَا تَعْدُوهُ.

3. وَقَالَ آخَرُونَ: تَجْرِي لِمَجْرًى لَهَا إِلَى مَقَادِيرِ مَوَاضِعِهَا، بِمَعْنَى: أَنَّهَا تَجْرِي إِلَى أَبْعَدِ مَنَازِلِهَا فِي الْغُرُوبِ، ثُمَّ تَرْجِعُ وَلَا تُجَاوِزُهُ. قَالُوا: وَذَلِكَ أَنَّهَا لَا تَزَالُ تَتَقَدَّمُ كُلَّ لَيْلَةٍ حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى أَبْعَدِ مَغَارِبِهَا ثُمَّ تَرْجِعُ" فهذا التفسير يتعلق بمسألة أن الشمس كل يوم لها مغرب يختلف عن مغربها في اليوم الذي قبله.

قال ابن كثير: "**فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: {لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} قَوْلَانِ:**

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمُرَادَ: مُسْتَقَرُّهَا الْمَكَانِيُّ، وَهُوَ تَحْتَ الْعَرْشِ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ، وَهِيَ أَيْنَمَا كَانَتْ فَهِيَ تَحْتَ الْعَرْشِ لِأَنَّهُ سَقْفُهَا، فَالشَّمْسُ إِذَا كَانَتْ فِي قُبَّةِ الْفَلَكِ وَقْتَ الظَّهِيرَةِ تَكُونُ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ مِنَ الْعَرْشِ، فَإِذَا اسْتَدَارَتْ فِي فَلَكِهَا الرَّابِعِ إِلَى مُقَابَلَةِ هَذَا الْمَقَامِ، وَهُوَ وَقْتُ نِصْفِ اللَّيْلِ، صَارَتْ أَبْعَدَ مَا تَكُونُ مِنَ الْعَرْشِ، فَحِينَئِذٍ تَسْجُدُ وَتَسْتَأْذِنُ فِي الطُّلُوعِ، كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ".

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: {لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} هُوَ انْتِهَاءُ سَيْرِهَا وَهُوَ غَايَةُ ارْتِفَاعِهَا فِي السَّمَاءِ فِي الصَّيْفِ وَهُوَ أَوْجُهَا، ثُمَّ غَايَةُ انْخِفَاضِهَا فِي الشِّتَاءِ وَهُوَ الْحَضِيضُ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ مُسْتَقَرّهَا (الزماني) وهُوَ: مُنْتَهَى سَيْرِهَا، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَبْطُلُ سَيْرُهَا وَتَسْكُنُ حَرَكَتُهَا وَتُكَوَّرُ، وَيَنْتَهِي هَذَا الْعَالَمُ إِلَى غَايَتِهِ، وَهَذَا هُوَ مُسْتَقَرُّهَا الزَّمَانِيُّ.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا}، أَيْ: لَا قَرَارَ لَهَا وَلَا سُكُونَ، بَلْ هِيَ سَائِرَةٌ لَيْلًا وَنَهَارًا، لَا تَفْتُرُ وَلَا تَقِفُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ} [إِبْرَاهِيمَ: 33] **أَيْ: لَا يَفْتُرَانِ وَلَا يَقِفَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**". لكن هذه القراءة لا تتفق مع التفسير النبوي للآية.

وقال ابْنِ عَبَّاسٍ: "**الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السَّمَاء في فلكها، فإذا غربت جرت الليل في فلكها تحت الأَرْض حتى تطلع من مشرقها، وكذلك القمر**". وإسناده صحيح.

أما قول أرباب التفسير العلمي، فقال د. سلامة عبد الهادي: "**كان علماء الفلك في القرون الماضية يعتقدون أن الشمس هي مركز الكون وأنها ثابتةٌ في مكانها وأن كل شيء يتحرك حولها، فتبيَّن في العصر الحديث أن الشمس تدور حول نفسها والأرض تدول حولها، والشمس تجري وتتحرك في هذا الكون، ويجري معها أعضاء مجموعتها المرتبطة بها من الكواكب إلى أن تستقر حركتها فيستقرون معها.**

وأرضنا التي نعيش عليها ليست إلا كوكبًا من كواكب المجموعة الشمسية التي تجري في ركب الشمس وتنقاد معها وفقًا لتقدير الخالق العزيز العلمي. فللشمس ميقات تستقر عنده بأمر خالقها، وسينتهي عنده كل شيء.

ويقول د. زغلول النجار: "**تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الشمس في حالة جريان مستمر حتى تصل لمستقرها المقدر لها، وهذه الحقيقة القرآنية لم يصل إليها العلم الحديث إلا في القرن التاسع عشر الميلادي، حيث كشف العالم الفلكي ريتشارد كارينغتون أن الشمس والكواكب التي تتبعها تدور كلها في مسارات خاصة بها وفق نظام ومعادلات خاصة، وهذا مصداق قوله تعالى: {**كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى**}** [الرعد: 2].

والشمس نجم عادي يقع في الثلث الخارجي لشعاع قرص المجرّة اللبنية، فمنذ ولادتها التي ترجع إلى 4.6 مليار سنة، أكملت الشمس وتوابعها 18 دورة حول المجرة اللبنية التي تجري بدورها نحو تجمع من المجرات، وهذا التجمع يجري نحو تجمع أكبر هو كدس المجرات، وكدس المجرات يجري نحو تجمع هو كدس المجرات العملاق، فكل جرم في الكون يجري ويدور ويسبح كما قال تعالى: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**}".**

ولكن أين هو مستقر الشمس الذي تحدث عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا**}؟ إن علماء الفلك يقدّرون بأن الشمس تسبح إلى الوقت الذي ينفد فيه وقودها فتنطفئ، هذا هو المعنى العلمي الذي أعطاه العلماء لمستقر الشمس، هذا بالإضافة إلى ما تم كشفه في القرن العشرين من أن النجوم كسائر المخلوقات تنمو وتشيخ ثم تموت، فقد ذكر علماء الفلك في وكالة الفضاء الأميركية (NASA): أن الشمس عندما تستنفد طاقتها تدخل في فئة النجوم الأقزام ثم تموت، وبموتها تضمحل إمكانية الحياة في كوكب الأرض – إلا أن موعد حدوث ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى الذي قال في كتابه المجيد: {**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلا هُوَ**}** [الأعراف: 187]".

خلاصة القول: يمكن أن يقال أن التفسير العلمي يتفق مع أحد الأقوال المذكورة في تفسير الآية، وهو القول الثاني الذي ذكره الحافظ ابن كثير من أن منتهى سيرها هو يوم القيامة.

3- وقال تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}[يس:39].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ أَصْلُ العِذْق. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْعِذْقُ الْيَابِسُ.

يقول الطبري: أننا نقدر هنا إضافة إلى ما سبق من الآيات، فيكون تقدير **"وَآيَةٌ لَهُمْ تَقْدِيرُنَا الْقَمَرَ مَنَازِلَ لِلنُّقْصَانِ بَعْدَ تَنَاهِيهِ وَتَمَامِهِ وَاسْتِوَائِهِ، حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، وَالْعُرْجُونُ: مِنَ الْعِذْقِ مِنَ الْمَوْضِعِ النَّابِتِ فِي النَّخْلَةِ إِلَى مَوْضِعِ الشَّمَارِيخِ، وَإِنَّمَا شَبَّهَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ وَالْقَدِيمُ هُوَ الْيَابِسُ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْعِذْقِ، لَا يَكَادُ يُوجَدُ إِلَّا مُتَقَوِّسًا مُنْحَنِيًا إِذَا قَدِمَ وَيَبِسَ، وَلَا يَكَادُ أَنْ يُصَابَ مُسْتَوِيًا مُعْتَدِلًا، كَأَغْصَانِ سَائِرِ الْأَشْجَارِ"**. اهـ.

وقال ابن كثير: "**{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ} جَعَلْنَاهُ يَسِيرُ سَيْرًا آخَرَ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ، كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ يُعْرَفُ بِهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}** [الْبَقَرَةِ: 189]" فنصت الآية على أن الأهلة والغرض من حركة القمر هي معرفة الناس للمواقيت.

يقول ابن كثير: **"فَجَعَلَ الشَّمْسَ لَهَا ضَوْءٌ يَخُصُّهَا، وَالْقَمَرَ لَهُ نُورٌ يَخُصُّهُ، وَفَاوَتَ بَيْنَ سَيْرِ هَذِهِ وَهَذَا، فَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ وَتَغْرُبُ فِي آخِرِهِ عَلَى ضَوْءٍ وَاحِدٍ ... وَأَمَّا الْقَمَرُ فَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ، يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ ضَئِيلًا قَلِيلَ النُّورِ، ثُمَّ يَزْدَادُ نُورًا فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، وَيَرْتَفِعُ مَنْزِلَةً، ثُمَّ كُلَّمَا ارْتَفَعَ ازْدَادَ ضِيَاءً، حَتَّى يَتَكَامَلَ نُورُهُ فِي اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ إِلَى آخِرِ الشَّهْرِ، حَتَّى يَصِيرَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ ثَلَاثِ لَيَالٍ مِنَ الشَّهْرِ بِاسْمٍ بِاعْتِبَارِ (منازل) الْقَمَرِ"**.

ويذكر علماء الفلك أن القمر يعكس للأرض في ظلمة الليل جزء من ضوء الشمس الساقط عليه.

والقمر له حركته المعقدة في الأماكن التي ينزل إليها بحيث تكون له دورة ثابتة، فتتوافق حركته حول الأرض مع حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس، بحيث تستغرق كل دورة شهرًا كاملاً (29 يوم و8 ساعات)، يبدأ فيه القمر بدرًا ثم يتلاشى شيئًا فشيئًا في مواقيت محددة وتتغير أشكال القمر بحسب مواضع نزول أشعة الشمس الساقطة عليه وما تحجبه الأرض عنه من هذه الأشعة.

ويؤثر فيه أمران: مواضع نزول أشعة الشمس الساقطة عليه، ثم ما تحجبه الأرض عنه من هذه الأشعة.

ويدور حول نفسه في وقتٍ مساوٍ تمامًا لدورته حول الأرض، ولذلك لا نرى من القمر إلا وجهًا واحدًا طوال الحياة؛ لكن المهم: أن القمر يقطع في كل يومٍ من دائرة سيره من فلكه حول الأرض ثلاث عشرة درجة، ويتأخر في شروقه عن اليوم السابق تسعةً وأربعين دقيقة كل يوم، ولولا هذا التأخر لبدا القمر بدرًا طوال الحياة.

فما ذكره أرباب التفسير العلمي فيه نوع تفصيل لما ذكره المفسرون في معنى الآية، يعني: ما ذكروه هو ليس معارضًا لما ذكرته الآية وذكره التفسير، فهم أعطونا زيادة تفسير وتوضيح وتجلية، فإن هناك توافق، وزادوا دقائق وتفصيلات تدل - ولا شك - على وجه من وجوه الإعجاز.

4- {لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[يس:40].

نبدأ أولاً بتفسير السلف:

قَوْلُهُ: {لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ}

قال مجاهد: "**لِكُلٍّ مِنْهُمَا حَدٌّ لَا يَعْدُوهُ وَلَا يَقْصُرُ دُونَهُ، إِذَا جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا ذَهَبَ هَذَا، وَإِذَا ذَهَبَ سُلْطَانُ هَذَا جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا**".

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا سُلْطَانًا، فَلَا يَنْبَغِي لِلشَّمْسِ أَنْ تَطْلُعَ بِاللَّيْلِ.

يقول الطبري: " **لَا الشَّمْسُ يَصْلُحُ لَهَا إِدْرَاكُ الْقَمَرِ، فَيَذْهَبُ ضَوْءُهَا بِضَوْئِهِ، فَتَكُونُ الْأَوْقَاتُ كُلُّهَا نَهَارًا لَا لَيْلَ فِيهَا**".

وَقَوْلُهُ: {وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ}

قَالَ الضَّحَّاكُ: لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا حَتَّى يَجِيءَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا. وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَطْلُبَانِ حَثِيثَيْنِ، يَنْسَلِخُ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ".

قال الطبري: "وَلَا اللَّيْلُ بِفَائِتِ النَّهَارِ حَتَّى تَذْهَبَ ظُلْمَتُهُ بِضِيَائِهِ، فَتَكُونُ الْأَوْقَاتُ كُلُّهَا لَيْلًا".

وقال ابن كثير: "وَالْمَعْنَى فِي هَذَا: أَنَّهُ لَا فَتْرَةَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، بَلْ كُلٌّ مِنْهُمَا يَعْقُبُ الْآخَرَ بِلَا مُهْلَةٍ وَلَا تَرَاخٍ؛ لِأَنَّهُمَا مُسَخَّرَانِ دَائِبَيْنِ يَتَطَالَبَانِ طَلَبًا حثيثًا".

وَقَوْلُهُ: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}

"يَعْنِي: اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلُّهُمْ يَسْبَحُونَ، أَيْ: يَدُورُونَ فِي فَلَكِ السَّمَاءِ، هذا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وعِكْرِمة، وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ".

أما أصحاب التفسير العلمي التجريبي، فيقول د. زغلول النجار: "**الليل والنهار ظرفا زمان ولا بد لهما من مكان، والمكان الذي يظهران فيه هو الأرض، ولولا كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس لما ظهر ليل ولا نهار، ولا تبادل كل منهما نصف سطح الأرض. والدليل على ذلك: أن الآيات في هذا المعنى تأتي دومًا في صيغة الجمع {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، ولو كان المقصود سبق كل من الشمس والقمر فحسب لجاء التعبير بالتثنية (يسبحان)**".

فمعنى كلام النجار: أن الأرض لم تُذكر في هذه الآية ولا التي قبلها، لكنها مشمولة في ذلك، لأن الليل والنهار يتعلقان بالأرض، فالآية الأولى تشير إلى الأرض، كما أن السبح لا يكون إلا للأجسام المادية في وسطٍ أقل كثافةٍ منها. والسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم بحركةٍ ذاتيةٍ فيه، بمثل حركات كل من الأرض والشمس والقمر في جري كل منها في المدار المحدد لها، فسبح كل من الليل والنهار في هاتين الآيتين الكريمتين إشارة ضمنية رقيقة إلى جري الأرض -هذا كلام النجار- في مدارها حول الشمس، وإلى تكورها ودورانها حول محورها أمام الشمس. وهذا الكلام لا يتعارض مع ما ذكره التفسير، بل يجليه ويوضحه.

5- أنموذج يتعلق بخلق الأرض وسكن الناس عليها.

قال الله Y: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} [النبأ: 6، 7] ونبدأ بذكر تفسير السلف.

قال قتادة: "{مِهَادًا} أي بساطًا، {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} والجبال للأرض أوتادا أن تميد بكم، يعني: تميل".

وقال القرطبي: "قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً}: دَلَّهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ، أَيْ قُدْرَتُنَا عَلَى إِيجَادِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَعْظَمُ مِنْ قُدْرَتِنَا عَلَى الْإِعَادَةِ، وَالْمِهَادُ: الْوِطَاءُ وَالْفِرَاشُ ".

فالقرطبي يبين لنا وجه علاقة هذه الآية بما قبلها {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ... ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} [النبأ: 1 - 5] فهم يشككون بالبعث ويكفرون به، فجاء بيان عظيم قدرته دليل على إمكانه.

وقال ابن كثير: " ثم شرع تعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره؛ فقال: "{أَلَمْ نَجْعَلِ الأرْضَ مِهَادًا} أَيْ: مُمَهَّدَةٌ لِلْخَلَائِقِ ذَلُولًا لَهُمْ، قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً، {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} أَيْ: جَعَلَهَا لَهَا أَوْتَادًا أَرْسَاهَا بِهَا وَثَبَّتَهَا وَقَرَّرَهَا حَتَّى سَكَنَتْ وَلَمْ تَضْطَرِبْ بِمَنْ عَلَيْهَا".

وقال ابن عاشور: "وَمُنَاسَبَةُ ذِكْرِ الْجِبَالِ دَعَا إِلَيْهَا ذِكْرُ الْأَرْضِ وَتَشْبِيهُهَا بِالْمِهَادِ الَّذِي يَكُونُ دَاخِلَ الْبَيْتِ فَلَمَّا كَانَ الْبَيْتُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَخْطُرَ بِبَالِ السَّامِعِ مِنْ ذِكْرِ الْمِهَادِ كَانَتِ الْأَرْضُ مُشَبَّهَةً بِالْبَيْتِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَكْنِيَّةِ، أي: استعارة مكنية، فَشُبِّهَتْ جِبَالُ الْأَرْضِ بِأَوْتَادِ الْبَيْتِ تَخْيِيلًا لِلْأَرْضِ مَعَ جِبَالِهَا بِالْبَيْتِ وَمِهَادِهِ وَأَوْتَادِهِ". اهـ.

أما أرباب التفسير العلمي التجريبي فيقولون في قوله: {أَلَمْ نَجْعَلِ الأرْضَ مِهَادًا} يذكرون أن كون الأرض مهادًا أو كالفراش والبساط لا ينفي كرويتها، كونها مهاد أو فراش أو بساط كما جاء في الآيات المتعددة لا ينفي كرويتها، ويستدلون على كرويتها بقوله تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [الزمر: 5].

بينما المفسرون يقولون أن التكوير هو الوارد هنا مفسر بمثل قوله تعالى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [الأعراف: 54]، وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [لقمان: 29]. وهو قول قتادة والسدي.

وقال ابن زيد: "حين يذهب بالليل ويكور النهار عليه، ويذهب بالنهار ويكور الليل عليه".

فإذا كان ابن زيد يعني بذلك أن الأرض تُغطَى بضوء النهار على طريقة التكوير، ولكنه لم يصرح بأن الأرض تكون كالكرة على الأقل نصفها الذي يكون ليلًا فيأتي النهار فيغطيه كما تُغطى نصف الكرة، يقول: ويذهب بالنهار ويكور الليل عليه.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: "أَيْ: سَخَّرَهُمَا يَجْرِيَانِ مُتَعَاقِبَيْنَ لَا يَقِرَّانِ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا. هَذَا مَعْنَى مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَغَيْرِهِمْ".

فيكور بصيغة المضارع يدل استمرار الأمر وتجدده وتكراره.

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى: {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}.

فيذكر أرباب العلم التجريبي أنه ثبت في العصر الحديث أن للجبال جذورًا عميقةً في الأرض، وأن ما يكون مخفيًا في داخل الأرض هو معظم الجبل، كالوتد الذي يضرب بالخيمة يكون أكثره مغروزًا في الأرض.

فهذا التفسير العلمي يتفق مع قول المفسرين ويزيد في إيضاحه، لكن يشكل عليه قوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} [النَّحْل: 15] فعبر عن تثبيت الأرض بالإلقاء وليس بأوتاد، فأجاب أصحاب التفسير العلمي بأن الإلقاء المذكور في الآية قد كان، ولكنه من أسفل الأرض إلى أعلاها بفعل البراكين، فلفظت الأرض ما بداخلها إلى السطح فتكونت الجبال.

بيد أن ما ورد عن السلف في تفسير الآية مختلف عما يقوله أرباب التفسير العلمي، فقال قَيْسِ بْنِ عُبَادة في تفسير هذه الآية: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ، جَعَلَتْ تَمُورُ، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا هَذِهِ بِمُقِرَّةٍ عَلَى ظَهْرِهَا أَحَدًا. فَأَصْبَحَتْ صُبْحًا وَفِيهَا رَوَاسِيهَا".

وهذا الإلقاء لا ندري كيفيته ونؤمن به فيكون هذا الإلقاء يترتب عليه أن تنغرس جزء ليس بالقليل من هذه الجبل الملقاة على الأرض تنغرس في عمق الأرض وتكون قاعدة هذه الجبال، ومعظمها داخل الأرض لتثبيتها وترسيتها حتى تكون ذلولًا مسخرةً لعباد الله تعالى.

وما قاله أصحاب التفسير العلمي التجريبي من أن إلقاء المذكور هذا بأن يكون من أسفل الأرض إلى أعلاها بفعل البراكين هذا لا يقضي أن يكون إلقاءً، ولا يظهر فيه الإلقاء، والآثار الواردة لا تدل عليه.

فما ذكروه من تفسير حول أن ذلك يكون خروج البراكين ويكون هو تفسير للإلقاء، هذا أمرٌ لا يمكن الجزم به، ولا يدل عليه ظاهر اللفظ، بل والآثار التي جاءت في تفسير الآية تدل على خلاف ذلك.

7- أنموذج جديد يتعلق بدورة المياه العذبة التي تنزل على الأرض، والتي تتبخر من البحار.

يقول الله Y: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا} [الفرقان: 50].

الراجح من أقوال المفسرين أن الهاء في قوله: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ} عائدٌ إلى المطر المذكور في الآيتين قبلها في قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا}. كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ: إِنَّ الضَّمِيرَ الْمَذْكُورَ رَاجِعٌ إِلَى الْقُرْآنِ، رُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ وَصَدَّرَ بِهِ الْقُرْطُبِيُّ.

قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما: "مَا عَامٌ بِأَكْثَرَ مَطَرًا مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُصَرِّفُهُ بَيْنَ خَلْقِهِ؛ ثُمَّ قَرَأَ: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ}". وذكره البغوي من حديث ابن مسعود مرفوعا أيضا.

ويؤيده قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ (21) وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} [الحجر: 21]. قال الطبري: "وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَمْطَارِ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ، لِكُلِّ أَرْضٍ مَعْلُومٌ عِنْدَنَا حَدُّهُ وَمَبْلَغُهُ". وقال ابن جريج: المطر خاصة.

أما أصحاب التفسير العلمي التجريبي فيقولون أنه ثبت بعد دراسات مستفيضة لتقدير كمية الماء على سطح الأرض أنها كمية هائلة إذ تقدر بحوالي ألف وثلاثمائة وستون مليون كيلو متر مكعب، أغلبها (قرابة 80%) هو مياه مالحة في البحار والمحيطات، أما تجمعت الكمية الباقية على هيئة المياه العذبة بأشكالها الثلاثة: الصلب والسائل والغازي، والماء يغطي 71% من سطح الأرض.

وعندما يتبخر الماء من أسطح كل من البحار والمحيطات واليابسة والأرض الرطبة، فإنها يرتفع بفعل قلة كثافته هذا الذي يتبخر ترتفع بدافع التيارات الهوائية له إلى المنطقة الأسفل من الغلاف الغازي للأرض، اللي يسمونه التغيرات المناخية، وهو يتميز بتبرد كلما ارتفع حتى تصل درجة حرارته إلى -80 درجة مئوية فوق خط الاستواء. وفي هذا النطاق البارد ينتج بخار الماء الصاعد للأرض ويعود إليه بإذن الله Y مطرًا أو ثلجًا أو بردًا أو طلًا، أو نحو ذلك.

ودورة الماء حول الأرض دورةٌ تدل على وحدانية الله Y وكمال قدرته Y وعظيم صنعه، وإحكامه لخلقه، فكميتها بمجموعها ثابتة ومحسوبة بما يكفي متطلبات الحياة على الأرض، والدورة ذاتها التي هي بين البخر والمطر تعمل على تنقية مياه الأرض التي يحيا ويموت فيها بلايين الأفراد من صور الحياة المختلفة.

وتعمل على حفظ التوازن الحراري على سطح الأرض وعلى تقليل شدة حرارة الشمس في الصيف، فيعمل على تقليل الفرق بين درجة الحرارة صيفًا وشتاءً؛ وذلك لصون الحياة الأرضية بمختلف أشكالها.

ولما كان مجموع ما يتبخر من الماء في الأرض إلى غلافها الغازي ثابتًا كل عام، ومجموع ما يحمل هذا الغلاف الغازي من بخار الماء ثابت أيضًا كذلك على مدار السنة، فإن مجموع ما ينزل من مطر إلى الأرض يبقى ثابتًا في كل سنة، وإن تباينت كميات سقوطه من مكان لآخر حسب مشيئة الله تعالى.

فكمية الأمطار التي تنزل على الأض في كل سنة هي ثابتة، لكن تختلف مواقعها من سنة لأخرى.

8- أنموذج يتعلق بالنبات، وهو عند قوله Y: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ} [الحجر: 19].

قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والحكم وسعيد: {مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ} أي معلوم.

قال ابن زيد: {مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ} يوزَن ويقدر بقدر، وجمع البغوي بين القولين.

أما أصحاب التفسير التجريبي العلمي، فعبد الدائم الكحيل يقول: "تستهلك النباتات لصنع نمائها وغذائها غاز الكربون، تحتاج إلى الكربون لصنع غذائها هذه النباتات، تأخذه من الهواء وتجري في داخلها عملية تسمى بالتركيب الضوئي، تركب من خلال المادة الخضراء التي يركب منها النبات الحب الثمار، ونتيجة هذه العملية يطلق النبات الأكسجين، والعجيب أن كمية النباتات على وجه الأرض مناسبة لحجم الغلاف الجوي، هناك توازن يشير إلى ما على وجه الأرض من غابات وأشجار مختلفة سواء كانت ما تنبت طبيعيًا أو تنبت، فالإنسان كلها في النهاية نقول أنها توازن بين كمية هذه النباتات وهي مناسبة لحجم الغلاف الجوي".

يقول: "وهذه النسبة قاسها العلماء حديثًا، فعلى سبيل المثال فإن نسبة الأكسجين في الغلاف الجوي هي 21% تقريبًا، ولو زادت هذه النسبة لاحترقت الأرض مع أول شرارة، ولو نقصت هذه النسبة قليلًا لماتت الكائنات اختناقًا، أما نسبة غاز الكربون في الغلاف الجوي هي أقل من 1%، ولو زادت هذه النسبة لتسمم البشر وماتوا جميعًا، ولو نقصت لماتت النباتات وتوقفت الحياة". يقول: "لذلك هناك توازن دقيق بين هذه النباتات وهذا ما تحدث عنه القرآن".

فهناك توافقًا بين ما قاله السلف وبين ما قاله أصحاب العلم التجريبي؛ فتفسيرهم يزيد في إيضاح ما ذكره السلف ويقويه.

9- أنموذج هام يتعلق بالإنسان وهو أطوار خلق الإنسان، وهو من أهم ما ينبغي أن يُطرق هنا لكثرة الأيدي التي تناولته؛ ولأن العلم توصل فيه إلى نتائج تستحق الوقوف والنظر.

يقول الله Y: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: 12 - 14]. ماذا قال السلف في تفسير هؤلاء الآيات؟

قال ابن كثير: "يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِن سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ صَلْصَالٍ من حمإٍ مسنون، وقال ابْنِ عَبَّاسٍ {مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ} قَالَ: من صَفْوَةُ الْمَاءِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مِنْ سُلَالَةٍ أَيْ من مني بني آدم، وقال ابن جرير: إنما سمي طِينًا لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْهُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتُلَّ آدَمُ مِنَ الطِّينِ، وَهَذَا أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى وَأَقْرَبُ إِلَى السِّيَاقِ، فَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خلق مِّن طِينٍ لَّازِبٍ، وهو الصلصال الْحَمَأِ الْمَسْنُونِ، وَذَلِكَ مَخْلُوقٌ مِنَ التُّرَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}". وعن أبي موسى عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنْ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**».

ثم يقول: "{ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً} : هَذَا الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى جِنْسِ الْإِنْسَانِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} [السَّجْدَةِ: 7، 8] أَيْ: ضَعِيفٍ، كَمَا قَالَ: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}، يَعْنِي: الرحمُ مُعَد لِذَلِكَ مُهَيَّأٌ لَهُ، {إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} [الْمُرْسَلَاتِ: 22، 23] ، أَيْ: إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَأَجَلٍ مُعَيَّنٍ حَتَّى اسْتَحْكَمَ وتَنَقَّل مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَصِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً}" يعني في سورة المؤمنين قال: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً}.

"أَيْ: ثُمَّ صَيَّرنا النُّطْفَةَ، وَهِيَ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ -وَهُوَ ظَهْرُهُ- وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ- وَهِيَ عِظَامُ صَدْرِهَا مَا بَيْنَ التَّرْقُوَةِ إِلَى الثَّنْدُوَةِ- فَصَارَتْ عَلَقَةً حَمْرَاءَ عَلَى شَكْلِ الْعَلَقَةِ مُسْتَطِيلَةً. قَالَ عِكْرِمَةُ: وَهِيَ دَمٌ". كذا قال؛ والأرجح في تفسير {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [الطارق: 7] أنه يخرج من بين صلب الرجل وترائب الرجل.

يقول ابن كثير: "{فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً}: وَهِيَ قِطْعَةٌ كالبَضعة مِنَ اللَّحْمِ، لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَخْطِيطَ، {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} يَعْنِي: شَكَّلْنَاهَا ذَاتَ رَأْسٍ وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ بِعِظَامِهَا وَعَصَبِهَا وَعُرُوقِهَا".

يقول ابن كثير: "وَقَرَأَ آخَرُونَ: {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا}. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ عَظْمُ الصُّلْبِ. وَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ جَسَدِ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبُ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ**».

يقول ابن كثير: "{فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} أَيْ: وَجَعَلْنَا عَلَى ذَلِكَ مَا يَسْتُرُهُ وَيَشُدُّهُ وَيُقَوِّيهِ، {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} أَيْ: ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ، فَتَحَرَّكَ وَصَارَ {خَلْقًا آخَرَ} ذَا سَمْعٍ وَبَصَرٍ وَإِدْرَاكٍ وَحَرَكَةٍ وَاضْطِرَابٍ {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}".

يقول: "وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: "إِذَا أَتَمَّتِ النُّطْفَةُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، بُعِث إِلَيْهَا مَلك فَنَفَخَ فِيهَا الرُّوحَ فِي الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} يَعْنِي: نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ" ... وَكَذَا قَالَ ابن عباس، ومُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالْحَسَنُ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وابنُ زَيْدٍ، وَاخْتَارَهُ ابنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} يَعْنِي: نَنْقُلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، إِلَى أَنْ خَرَجَ طِفْلًا ثُمَّ نَشَأَ صَغِيرًا، ثُمَّ احْتَلَمَ، ثُمَّ صَارَ شَابًّا، ثُمَّ كَهْلًا ثُمَّ شَيْخًا، ثُمَّ هَرِمًا". فيدخل فيه جميع المراحل التي يمر بها الإنسان منذ أن ينفخ فيه الروح إلى يشيخ ويهرم.

ثم ذكر أيضًا الحافظ ابن كثير وهذا أمر مهم، ذكر حديث ابن مسعود: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ...

وحديث حذيفة بن أسيد الغفاري، والاختلاف فيه أنه ذكر فيه أنه يدخل الملك على النطفة، وفي حديث ابن مسعود ذكر أنه يرسل إلى الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بالكلمات.

قبل الدخول فيما قالوا حول آيات سورة المؤمنون، يحسن أن نذكر جملة موجزة عن أهم ما ذكر أبواب التفسير العلمي فيما يتعلق في مراحل تطور خلق الجنين، ومدى تطابقها مع المعطيات العلمية الحديثة.

يقول د/ محمد بن إبراهيم الدودح، يكفي أن تعرف أن الإدراك بتكون الجنين من أخلاط من الجنسين، أي أمشاج، لم يتحقق إلا بعد عقود من اكتشاف المجهر في القرن السابع عشر، وأول من استخدم عدسة بسيطة في دراسة أجنة الدجاج هو هارفي عام 1651م ولصعوبة معاينة المراحل الأولى استنتج أن الأجنة ليست إلا إفرازات رحمية، وفي عام 1672 اكتشف جراف حويصلات المبايض وعاين حجيرات في أرحام الأرانب الحوامل تماثلها، فاستنتج أن الأجنة ليست إفرازات من الرحم، وإنما من المبايض".

وفي عام 1827م عاين فون بير البويضة، وأخيرا انتهى الجدل حول فرضية الخلق المكتمل، وتأكدت أهمية كل من الحيوانات المنوية والبويضة، واستقرت حقيقة التخلق في أطوار بعد ما كانت مجهولة، وفي عام 1878م اكتشف فليمنج الكروموزومات، وفي القرن العشرين تم التحقق نهائيا من احتواء البويضة المخصبة على تلك الأخلاط الوراثية، التي أشار إليها قوله Y: {أَمْشَاجٍ} والتخلق من الذكر والأنثى".

يقول: "الدليل على هذا الأمر أن الإنسان مخلوق من ذكر وأنثى قول العلي القدير: {يَأَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىَ} [الحجرات: 13]، قال القرطبي: "بيَّنَ الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، وقد ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده ويتربى في رحم الأم، ويستمد من الدم الذي يكون فيه. والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية {يَأَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىَ}؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل" انتهى كلام القرطبي.

يقول: "ووظيفة السمع خلال تكون الجنين تسبق بالفعل وظيفة البصر، حيث تبدأ العمل ابتداء من الشهر الخامس بينما يتأخر البصر، فهل هي مصادفة أن يتفق النظم مع الواقع، أم هو الإحكام في البيان والبينة على التنزيل؟ وهكذا كلما غصت أكثر نحو الأغوار، كان رصيدك أكثر من دلائل الإحكام في البيان الموافق الحقيقة من كل وجه".

يقول: "ويرجع القرآن بالإنسان إلى أصول أولية للبويضة المخصبة نحو السائل المنوي المماثل للماء عديد النطف، وأصول جيولوجية أبعد كالطين، ليدرك أن معرفة الله وعبادته هي القصد من كل تكوين، يقول العلي القدير: {الّذِيَ أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ (7) ثُمّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مّن مّآءٍ مّهِينٍ} [السجدة: من 7-8].

يقول: "يقول العلي القدير: {أَلَمْ نَخْلُقكّم مّن مّآءٍ مّهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مّكِينٍ (21) إِلَىَ قَدَرٍ مّعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} [المرسلات: 20-23]، وفي قوله تعالى: {كَلاّ إِنّا خَلَقْنَاهُم مّمّا يَعْلَمُونَ} [المعارج: 39]؛ يشير إلى الإبهام بضآلة الأصل، أصل الإنسان، ويضاعف الإعراض قدر الجريمة" أو ويكون الإعراض وهو جريمة ولاشك عن الله Y.

يقول: "ويجعل المتهم شاهد عيان يعرف بنفسه الحكم" مع هذه الدلائل القوية يكون إدانةً له.

يقول: "ولا يقوم بالإخصاب إلا مكون منوي واحد" لاشك في هذا حيوان منوي واحد هو الذي يقوم بالإخصاب، "من السائل المنوي المماثل للماء عديد النطف (حوالي 60 مليون\ ميلليليتر)، يقول العلي القدير: {أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مّن مّنِيّ يُمْنَىَ} [القيامة: 36-37].

يقول: "ويحتوي الحوين المنوي على نصف عدد الكروموزومات، وتحتوي البويضة على النصف المكمل، والحوينات إما أن تكون ذات شارة ذكورة؛ لوجود كروموزوم الجنس فيها على هيئة(Y) ، أو تكون ذات شارة تأنيث لوجوده على هيئة (X) بينما لا تملك البويضة إلا شارة تأنيث، ولذا يرجع تحديد جنس الجنين إلى المني فحسب، وهو ما تطالعه في قوله تعالى: {وَأَنّهُ خَلَقَ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالأنثَىَ(45) مِن نّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىَ} [النجم: 45-46]، وقوله تعالى: {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مّن مّنِيّ يُمْنَىَ (37) ثُمّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّىَ (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالأُنثَىَ} [القيامة: 37-39]".

يقول: ويبين القرآن بالتفصيل تباين أطوار تكون الجنين في تعبيرات وصفية بالغة الإحكام، يقول العلي القدير: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14)} [المؤمنون 12-14]." هذه الآية التي ذكرنا قبل قليل تفسير السلف لها، والآن سنتناولها الآن بنوع من البيان من حيث ما قال أرباب التفسير العلمي.

قال الشيخ الطبيب أحمد حطيبة يعلق على آيات سورة المؤمنون:

قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13)} [المؤمنون: 12، 13]، يقول: فقد كانت النطفة في صلب الرجلِ واستقرت في رحم المرأة، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ} [المؤمنون: 14] من جزءٍ واحد من ملايين الحيوانات المنوية.

يقول: يقول تعالى: { ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} [المؤمنون: 14]، يقول: وهذا الترتيب ترتيبٌ سريع ولذلك أتى بالفاء، يعني يقصد بالسريع والله أعلم يعني متوالي، يعني هذه المراحل، مرحلة النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم العظام كلها يعني عطف بينها بالفاء، يقول: مما يدل على أنها مراحل متوالية، لأنه أتى بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب مباشرة. ففي خلال 42 يوماً يتكون الجنين في بطن الأُم ويتخلق في خلال هذه المدة.

وهذا الكلام هذا يوافق الحديث حديث حذيفة ابن أُسيد والتي ذكر فيها أن الملك يتلقى من الله Y شقاوة ذلك الجنين أو سعادته، ويتلقى يعني رزقه ومصيبته ونحو ذلك التي تقدمت في محاضرةٍ مضت.

فإن الرحم عندما تدخل فيه النطفة، فإنها تنقسمُ وتتحول إلى علقة كشكل الدودة وتتعلق في جدار الرحم وتستقر فيه، ثم تتحول هذه العلقة إلى مضغة فتصبح وكأنها قطعةٌ من اللحم الممضوغ ويبقى فيه علامات الأسنان، ويكون طولها وهي في بطن الأم مضغة حوالي عشرة سنتيمترات.

قال الزنداني: سألت بعض علماء المسلمين أيهما يتكون أولاً: العظام أم اللحم؟ فكان جوابه سريعاً المسئول: قال اللحم. فرجعنا إلى القرآن فإذا هو يقول: إن العظام تخلق أولاً. فراجع الأمرَ ثم قال: إنه أخطأ في كلامه. وسألتُ بعض العلماء الأجانب فكان جواب الجميع: أن العظم يتكون أولاً وبعده اللحم.

يقول: قال اللهُ تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} [المؤمنون: 14] أي خرج من مرحلة التخليق إلى مرحلة التصوير السمعي والبصر والجنسي فخرج خلقاً آخر هو هذا الإنسان العجيب بعدما تنفخ فيه الروح.

ويقول: محمد راتب النابلسي: فمن العلقة إلى المضغة عطفٌ بالفاء، وكذلك من المضغة إلى العظام، ومن العظام إلى اللحم. أما من النطفة إلى العلقة فقد جاء العطفُ بثم {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً} مع العلم أن ثم حرف عطف للترتيب على التراخي، والفاءات بعدها متلاحقة والفاء فهو حرف للترتيب والتعقيب.

يقول: إن أحدث ما في علم الجنين أو علم الأجنة أن هناك فترة زمنية بين مرحلة النطفةِ ومرحلة العلقة، هذه الفترة تزيدُ على أسبوعين حيث يتباطأ فيها نمو الجنين لأن هذه المرحلة مرحلة انغراز النطفة في جدار الرحم، والجنين في هذه المرحلة لا ينمو ولكنه يوطدُ طرائق امتصاصه للغذاء من الرحم.

يقول: ولا يكون في هذه المرحلة إلا كقرصٍ من الخلايا المنتظمة، فهذا البطء في مرحلة نمو الجنين في الأسبوع الثاني والثالث من اللقاح عبر الله عنه بحرف ثم، أما من العلقةِ إلى المضغة ومن المضغة إلى العظام فقال Y: {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} [المؤمنون: 14].

10- نموذج يتعلق بالإنسان لكنه بعضو من أعضائه، "**البصمة**" يقول الله تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4)} [القيامة: 3، 4].

▪ يقول ابن قتيبة: هذا ردٌ من الله عليهم وذلك أنهم ظنوا أن الله لا ينشر الموتى ولا يقدرُ على جمع العظام البالية، فقال بلى فاعلموا أنا نقدرُ على رد السُلاميات على صغرها ونؤلفُ بينها حتى يستوي البنان، ومن قدرَ على هذا فهو على جمع كبار العظام أقدر.

وقال الزجاج: بلى نقدرُ على أن نجعله كخف البعير، والذي هو أشكل (وهو أقرب أو أشبه بجمع العظام). وهو موافقٌ لما قاله ابن قتيبة. ورجحه ابن كثير وابن القيم.

▪ أما الطبري فنقل لنا ما ذهب إليه جمهور السلف، وهو تفسيرٌ يعني على خلاف ما ذكره ابن قتيبة.

قال الطبري: يقول تعالى: { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) } يظن ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها، بلى قادرين على أعظم من ذلك {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4)} وهي أصابعُ يديه ورجليه فنجعلها شيئاً واحداً كخف البعير أو حافر الحمار، فكان لا يأخذُ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم، وكنه فرق أصابع يديه يأخذُ بها ويتناول ويقبض إذا شاء فحسُنَ خلقه.

وبنحوه قال ابن عباس، وعكرمة والحسن ومجاهد وقتادة والضحاك.

فاتفقوا على أن المراد: أن الله Y يمتنُ على الإنسان أن لم يجعل يده مثل خف البعير قطعةً واحدة لا يستطيع أن يُمسك بها، بل جعلها أصابع ينتفع بها نفعاً عظيماً.

فماذا قال أرباب التفسير العلمي، قال مصطفى مسلم: والشيء المستغرب لأول وهلة في هذا الاستدلال هو أن القدرة على تسوية البنان والبنان جزءٌ صغير من تكوين الإنسان، لا يدل بالضرورة على القدرة على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن القدرة على خلق جزء لا يستلزم بالضرورة القدرة على الجسم كله.

وهذه الإشارة الدقيقة إنما أُدركت فيما بعد في القرن 19 الميلادي عندما اكتشف علماء الطب أن الخطوط الدقيقة الصغيرة الموجودة على البشرة في رءوس الأصابع تختلفُ من شخصٍ لآخر وأن هذه الخطوط تكون على ثلاثة أنواع: أقواس أو عراوي أو دومات (دوائر متحدة المركز)، ورابع هو المرَكَّبَات (مركبة من أشكال متعددة). وتظهر هذه الخطوط في جلد الجنين وهو جنين في بطن أُمه عندما يكون عمره 120 يوماً وتتكامل تماماً عند مولده ولا تتغير مدى الحياة، ومهما عرض له من إصابات وحروق وأمراض. كما أنه لا تتطابق تمام التطابق من شخص إلى آخر بل لابد من فوارقٍ تميز أحدهما عن الآخر.

وفي سنة 1884 استعملت البصمات رسمياً كوسيلة للتعرف على شخصية الشخص المراد..

وتبرز عظمة الخالق في تشكيل هذه الخطوط على مسافةٍ ضيقة لا تتجاوز بضعة سنتيمترات، فلا تشابه بين بنان اثنين من ألوف الملايين من البشر، ولو أعطي إنسانٌ ماهر مساحةً بمقدار قعر الكف مثلاً وطلب منه أن يرسم لوحاتٍ كثيرة لا تتشابه في خطوطها وتقسيماتها فيمكن أن يرسم عدة آلاف من النسخ تتباين أشكالها وتقسيماتها ومن ثم تنتهي إمكانياته وتأتي أشكال بعد ذلك متماثلة مع بعض سبق رسمه.

11- دراسةً تطبيقية لاستبانة معالم منهج القُرْآن في تناول الآيات الآفاقية والنفسية.

وهي قوله Y: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ... بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ} [النمل: 59 - 66].

وموضوع هذه الآيات هو أدلة ألوهية اللهِ تَعَالَى وأدلة البعث، هذا المقطع له مناسبة بما قبله، وهذه العلاقة هي أنه لما استوفى غرض الاعتبار وإنذار حقه بالنظر في عواقب بعض الأمم التي كذبت الرسل.

نبدأ بتفسير هذه الآيات، هو طريقٌ لأن نستبين معالم منهج القُرْآن في عرضه للآيات الآفقية والنفسية.

أما الآية الأولى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: 59]؛ أي قُلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء؛ لكمال أوصافه وجميل معروفه وهباته وعدله وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين. وسلم أيْضًا على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة الله من العالمين، وذلك برفع ذكرهم وتنويهًا بقدرهم وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قَالُوه أيْضًا في ربهم Y سلامته من النقائص والعيوب.

وقوله: {آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} هذا استفهام قد تقرر وعُرف، أي: الله الرب العظيم كامل الأوصاف عظيم الألطاف خير أما الأصنام والأوثان التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون.

ثم إن هذا الاستفهام كما أنه كالنتيجة لما قبله، وبالنظر إلى اعتبار الآيات التاريخية فهو كالتمهيد لما بعده، وهو نوع آخر من الحجج وهو النظر والاعتبار للآيات الكونية والنفسية.

والآية الثانية: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [النمل: 60].

هذه الآية الكريمة بدأ الله هذه الآية ببيان ما أجمل في الآية السابقة، فبدأ يبين دلائل استحقاق العبودية وحده Y دون غيره من الشركاء.

والمعنى: أمن خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم وما دونها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة، والأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك، وأنزل لأجلكم من السماء ماءً فأنبتنا بها حدائق أي بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط.

قال الفراء: "وإنما يقال الحديقة لكل بستان عليه حائط، فما لم يكن عليه حائط لم يُقَل له حديقة".

وقوله: ذات بهجة أي منظر حسن، يبتهج به من يراه، وذلك من كثرة أشجارها وتنوعها وحسن ثمارها.

وقوله: ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أي: ما أمكن لكم إنبات شجرها فضلًا عن ثمرها وسائر صفاتها التي هي عليه، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دونما سواه من الأصنام والأنداد.

وقوله: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} استفهام إنكاري، أي: هل معه معبود سواه أعانه على صنعه، وقال بعدها: بل هم قوم يعدلون، أي: يعدلون به غيره ويسوون به سواه، مع أنه هو وحده خالق العالم العلوي والسفلي.

والآية الثالثة لما ذكر تعالى أنه منشئ السماوات والأرض ذكر شيئًا مشتركًا بين السماء والأرض وهو إنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق في الأرض، ذكر شيئًا مختصًا بالأرض فقال: {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

أي: هل الأوثان والأصنام الناقصة من كل وجه التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، أم الله الذي جعل الأرض قرارًا يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى ومن البناء والحرث، وجعل خلالها أنهارا التي هي الأنهار العذبة الطيبة يشقها في خلالها وصرفها فيها، وبين أنهار كبار وصغار وغير ذلك وسيرها بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم وفي زروعهم وأشجارهم وشربهم وشرب مواشيهم.

وجعل لها رواسي أي جبالًا ترسيها وتثبتها لألا تميل وتكون أوتادًا لها لألا تضطرب، وجعل بين المياه العذبة والمالحة ما يمنعها من الاختلاط، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على الصورة المفصولة منه.

وقوله: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} فهم يشركون بالله تقليدًا لرؤسائهم، فلو علموا حق العلم لم يشركوا.

والآية الرابعة لما ذكرهم تعالى بنعمه ودلائل قدرته في آياته الآفاقية، ثم بما منَّ عليهم في أنفسهم فقال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}

فبدأ بأشد الأحوال وأخصها فقال: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} أي: هل يجيب المضطر والمكروب والمكلوب الذي تغشته الشدائد، وطلب الخلاص مما هو فيه إلا الله وحده.

ثم انتقل إلى عموم الضر والشدة فقال: {وَيَكْشِفُ السُّوءَ} أي من يكشف السوء وهو البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده، ثم استطرد بذكر ما هو أعظم منة من كشف السوء وهو التمكين لهم في الأرض فقال: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} أي: ومن يجعلكم خلفاء الأرض فيمكنكم منها ويمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه. قال أبو حيان: "وكم رأينا في الدنيا ممن بلغ حالة الاضطرار ثم صار ملكًا متسلطًا" اهـ.

وقوله: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} يفعل هذه الأفعال، وهو استفهام للتوبيخ، أي لا أحد يفيض هذه النعم الجسام على كافة الأنام غيره بإقرار المشركين أنفسهم؛ ولهذا إذا مسهم الضر دعوا الله وحده؛ لعلمهم أنه هو المقتدر.

وقوله: {قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} ما يرشدهم إلى الحق، لأن الغفلة والإعراض قد استولت عليهم.

وأما الآية الخامسة فمناسبتها لما تقع قبلها أنه ذكرهم بنعمته تعالى، ثم ذكرهم تعالى بمنته عليهم في أحوال خاصة في أحوالهم، وهي هدايتهم في أسفارهم في البر والبحر بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية بالرياح التي يهتدون باتجاهها فقال تعالى: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} والعطف بالامتنان بإرسال الرياح في قوله: {يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} يشير إلى أنها من أدلة السير، لكن نبه إلى ما هو أعظم منها، وهو التصريح بأن هذه الرياح من أدلة الغيث والمطر، فقوله: {بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} أي للزرع والأرض.

وقوله: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} تقرير لتوحيد الله في ربوبيته وإلوهيته وأسمائه وصفاته، ونفيه ما يضاد ذلك من الشرك.

والآية السادسة، وصلتها بما قبلها أنه Y لما قضى تعالى في الآيات السابقة الأصل الأكبر من أصول الدين وهو الإيمان بالله تعالى ببيان دلائل إلوهيته ونزه نفسه فيها من كل شيء، وأكد ذلك بخاتمة الآية السابقة، يقرر في هذه الآية الأصل الثاني وهو الإيمان باليوم الآخر فقال تعالى: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

فقوله: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} أي: هو الذي بقدرته وسلطانه Y يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال Y في آية أخرى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} [البروج: 12، 13] وقال تعالى أيضًا: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: 27].

ثم في آنٍ واحد امتن Y واستدل على البعث، امتن على العباد ثم استدل على البعث بقوله: {وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} فهذه الجملة فيها منة وفيها دليل على البعث، أي من ينزل المطر من السماء، وبما ينبت من بركات الأرض، وفي هذه الجملة امتن الله Y على العباد بالرزق من السماء والأرض.

ثم هي تشير إلى دليل حسي يشاهد مقرور على القدرة على البعث، وهو هذا النبات الذي يتجدد ظهوره على سطح الأرض كلما تجدد نزول المطر عليها.

وقوله تعالى: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي: هاتوا برهانًا عقليًا أو نقليًا يدل على أن معه تعالى إلهًا لا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذُكر من أفعاله تعالى، إنهم ما ادعوها صريحة، لا يدعون أن هذه الآلهة تقدر على ما أحدثه Y مما اختص Y بقدرته، لكنهم الله Y تحداهم بأن يأتوا ببرهان عقلي يدل على أن الله تعالى له شريك أو إله، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

أما الآية السابعة؛ فعلاقتها بما قبلها أن الآية السابقة دالة على حتمية البعث؛ لأنه كامل في قدرته ورحمته، بين في هذه الآية أنه تعالى هو وحده الذي يعلم متى البعث، يعلم متى الساعة؛ لأنه كاملٌ أيضًا في علمه، فقال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}.

ويقول ابن كثير: "يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ مُعَلِّمًا لِجَمِيعِ الْخَلْقِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ والأرض الغيب إلا الله. وقوله تعالى: {إِلَّا اللَّهُ} اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ أَيْ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام: 59] الآية، وقال تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34] ، والآيات في هذا كثيرة". الدالة على اختصاص الله Y بالغيب وأنه لا يعلمها إلا هو.

"وقوله تعالى: {وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} أَيْ وَمَا يَشْعُرُ الْخَلَائِقُ السَّاكِنُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِوَقْتِ السَّاعَةِ كما قال تعالى: {ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً} [الْأَعْرَافِ: 187] أَيْ ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ". اهـ ابن كثير.

أما الآية الثامنة: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ}.

يقول السعدي: "فهذه الغيوب ونحوها اختص الله بعلمها فلم يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة منتقلا من شيء إلى ما هو أبلغ منه فقال: {وَمَا يَشْعُرُونَ} أي: وما يدرون {أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} أي: متى البعث والنشور والقيام من القبور أي: فلذلك لم يستعدوا."

"{بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ} أي: بل ضعف، وقل ولم يكن يقينا، ولا علما واصلا إلى القلب وهذا أقل وأدنى درجة للعلم ضعفه ووهاؤه، بل ليس عندهم علم قوي ولا ضعيف وإنما {هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا} أي: من الآخرة، والشك زال به العلم لأن العلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك، {بَلْ هُمْ مِنْهَا} أي: من الآخرة {عَمُونَ} قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال بعدها: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ} أي: هذا بعيد غير ممكن قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة." اهـ السعدي حول الآية الأخيرة.

ولنقف على الدلالات التي توصف بها الآيات من معانٍ في عرض الآيات الآفاقية والنفسية.

الدلالة الأولى: أن القرآن يعرض الآيات الآفاقية باعتبار أنه سخرها للإنسان ولصيقة به، فهي جزء من حياته وبيئته، ومحققة لوظيفته في الأرض، وهذا المعنى هو خاصية سبق أن تناولناها عمومًا في محاضرة مضت، لكنها ظهرت أيضًا في هذه الآيات، فهي ظاهرة فيها قال Y: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} [النمل: 60].

فإنزال الماء في قوله: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} هو لأجل الإنسان وهو مسخر له ومضطر إليه، وهو منَّ الله به على العباد بالنبات والحدائق المبهجة للقلوب في قوله تعالى: {فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} فهذا يدل على أنها قريبة من الإنسان ومحبوبة له، ذات بهجة أي: لاشك أنها مما يحبها الإنسان ويتعلق بها ويكون قريب منها.

وتكرر هذا المعنى مجملًا في الآية الخامسة: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [النمل: 64]. وهذه دلالة ظاهرة أيضًا في الآية الثالثة: {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النمل: 61].

فهذه مهيئة لهذا الإنسان، والأنهار مسخرة له وقريبة منه وهي جزء من حياته، وكذلك الجبال التي ثبت الله بها الأرض، فهي قريبة منه، وهو يأنس بها ويستدل بها وغير ذلك مما يُنتفع به من هذه الآيات.

وكذلك هذه الآية ظاهرة في الآية الرابعة قال Y: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: 63] أي جعل لهم من العلامات ما يهتدون بها في ظلمات البر والبحر، وكذلك الرياح هي علامة على السير وعلى الغيث والرحمة، فهي قريبة من الإنسان، وأنيسة له.

الدلالة الثانية: هي أن القرآن يتناول الآيات الآفاقية والنفسية بعبارة جلية وأسلوب سهل قريب، وهذا ظاهر في جميع الآيات السابقة التي تناولتها هذه القضية النفسية، فالمتأمل في الآيات كلها يلحظ فيها روح العبارة وحسن سبكها ظاهرة في وضوحها وجلائها، بعيدة عن الغلاظة والتكلف،.

كما قال Y: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)} فهي واضحة جلية، وأساليب أيضًا في غاية الوضوح والبيان.

الدلالة الثالثة: جعله الآيات الآفاقية والنفسية مقرونة بالغرض الذي صيغت له، في خمس آيات متوالية يعرض تعالى الآيات الكونية والنفسية فيما يكون معقب في كل آية على سبيل الإنكار: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}.

إذًا هو يعرض الآية، ثم يذكر الغرض منها وهي الاستدلال بها على استحقاق الله Y وحده بالإلوهية، وأن الذين يشركون قد وقعوا في ظلم عظيم.

وفي الآية الخامسة منها يقول الله Y: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل: 64]

ويعرض الآية الآفاقية في قوله: {وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} مقرونة بغرضين:

الأول منها: هو إثبات البعث في قوله: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}.

والغرض الثاني منها: هو إثبات التوحيد {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}،

مع الآيات الآفاقية قارب معها غرضين هما إثبات البعث، وإثبات التوحيد أو توحيد الإلوهية لله Y.

الدلالة الرابعة: أنه Y يقرن بين الآيات الآفاقية والنفسية لحكمة بالغة وهذا ظاهر ..

يقول Y: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [النمل: 62] فهذه جاءت في أثناء الآيات الآفاقية، آية تتعلق بالإنسان في حال الاضطرار وقرب الله Y منه وأنه يكشف السوء، وأنه أيضًا هو الذي يمكن له في الأرض ويجعل بني آدم خلفاء الأرض.

وهذا أيضًا في الآية الخامسة الدلالة الرابعة في الآية الخامسة قوله Y: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: 63].

فقد دلت الآيات هذه على عظيم رعاية الله تعالى لنفس الإنسان ورحمته ولطفه بهذا الإنسان، فقد هيأ الله له أسباب الخلافة في الأرض، وسخر له فيها الآيات، ثم إنه تعالى سخر بعض آياته الكونية وهي العلامات والرياح لإزالة ما قد يقع من ضرر على الإنسان من الآيات الآفاقية الأخرى وهي ظلمات البر والبحر، فقد يقع بالإنسان من بعض الآيات ضرر وشدة وكربة فالله Y يهيئ بآيات أخرى من آفاقه الكونية لإزالة ما قد يقع بالإنسان من ضرر.

فإنه تعالى سخر بعض آياته الكونية والعلامات والرياح لإزالة ما قد يقع من ضرر على الإنسان من الآيات الآفاقية الأخرى وهي ظلمات البر والبحر.

وكذلك في قوله تعالى في الآية السادسة: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل: 64].

في هذه الآية دمج بين خلق الإنسان وخلق النبات لحكمة بالغة وهي الاستدلال به على حتمية البعث، فدمج في الآية بين خلق الإنسان في قوله: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} وبين خلق النبات في قوله: {وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، وتقدم في التفسير أن المراد يرزقكم من السماء حين ينزل لكم المطر وبما ينبت في الأرض من أثر من آثار هذا المطر. فإذًا هو دمج بين هذين الأمرين خلق الإنسان وخلق النبات لحكمةٍ بالغة، هي الاستدلال به على حتمية البعث.

الدلالة الخامسة: أنه يدمج بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ويستدل .. كما سبق، فقد تناولت آيات آفاقية عظيمة ظاهرة وتدل على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته وأنه مستحق للعبادة.

كما أنه دمج في الآية السادسة بين خلق الإنسان وخلق النبات وهو مشاهد ويستدل به على أمر غيبي وهو البعث، إذًا هذه الآيات كلها ظهرت فيها أنه يدمج بين عالم الغيب وعالم الشهادة، بأنه كلما ذكر لهم آية من هذه الآيات الآفاقية النفسية العظيمة الظاهرة، يذكر بعد ذلك الحجة عليهم بأنه هو الإله الحق Y وأنه المستحق للعبادة، وإن كان غير مشاهد، لكن ظاهر في ذلك آثاره في خلقه Y.

وكذلك وضح ذلك في الآية السادسة دمج بين خلق الإنسان وخلق النبات وهو مشاهد ويستدل به على أمر غيبي وهو البعث.

الدلالة السادسة: أنه تناول الآيات الآفاقية على اختلافها بنهاية واحدة، تأمل في الآيتين الثانية والثالثة: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61)}

تأمل كيف صارت الآية الثانية أساسًا لبقية الآيات بعدها، وهي التي وضحت الغرض من خلق السماوات والأرض، وصت الآية هنا بالنظر إلى السماء وكيفية رفعها عن الأرض، والأرض وكيفية تسخيرها للإنسان كالنبات والجبال والرياح وغيرها من المسخرات الأرضية.

الدلالة السابعة: هي أنه تعالى يعرض الآيات الآفاقية والنفسية ممتنًا بها على عباده، ومستدلًا بها في نفس الوقت على كماله في قدرته وعلمه وسائر صفاته، وهذا ظاهر في جميع الآيات.

في الآية الأولى: دمج بين بيان كمال قدرته وعلمه وسائر صفاته وبين منته فقال: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: 59]، وفي الآية الثانية دمج بين كمال قدرته وعلمه ومنته فقال: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [النمل: 60].

وكذلك في الآية الثالثة دمج بين كمال قدرته ومنته فقال: {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النمل: 61].

وأيضًا في الآية الرابعة والخامسة دمج بين كمال قدرته ورحمته ومنته فقال: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: 62، 63].

كذلك في الآية السادسة دمج بين كمال قدرته ومنته فقال: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل: 64].

الدلالة الثامنة: أنه يعرض الآيات الآفاقية والنفسية محتجًا بها على وحدانيته ضمن بقية الحجج القرآنية، كما في قوله تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: 59] رابطًا بين الاحتجاج بالآيات التاريخية والآيات الآفاقية والنفسية في غاية البراعة والإبداع.

والمقصود أنه لا يعرض الآيات الآفاقية والنفسية فقط مقصورًا عليها، بل هو يعرضها ضمن مجموعة من الحجج والبراهين المتعددة والمتنوعة.

{وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ، وَبِالْحَقِّ نَزَلَ}